بعض من ذاكرتي

غسان أبو منصور

الإهداء

إلى والدي العزيز:

هذا العمل هو ثمرة ما غرسته فينا منذ الصغر.
وسيبقى قلمي مَدينٌ لكَ دائماً وأبدا.

ضَياع في القفار الملتهبة

الطيور تتقافز فوق الحجارة السوداء وتبحث لها عن مأوى، والسماء رمادية اللون والمطر رذاذي متقطع والبرد شديد. إنه تشرين الثاني، شهر الصقيع إذ الخريف الدافئ قد رحل والأشجار تعرّت وغَدَتْ قاتمة وكئيبة. تثاءبتُ كالقطّ وأنا مستلق على ظهري بجانب صخرة كبيرة احتميت بها من لسعة برد تهب من الشرق، ومن ثم حدّقت في الغيوم الحبلى بالمطر والعابرة فوقي بعجل. وصية الحاج أحمد ما زلت أرددها في أعماقي:

- عندما تصل إلى الحدود لا تفعل أي شيء، فقط اسأل عن الضابط هناك وانتظره في المكان الذي حددته لك حتى يأتي هو إليك.

صحيح إن هذا الضابط سافل كما يقول عنه الجميع، لكنه يملك حفرة أسفل الأسلاك الشائكة في مكان آمن على الحدود هنا قد حفرها بيديه مثل الكلب ليجعل منها مهرباً للنازحين مقابل عشرين ألف ليرة.

- ليرة..؟، عشرون ألف يا حاج أحمد..؟، والله كثير..!!.

فرّد الحاج ساخراً :

- لا، عشرون ألف بيضة، طبعا ليرة، ابق هنا مختبئاً كالأرنب إن أردت.

لم أبق هناك، وبعتُ ما بقي عندي من مخزون الزيت بِعُشْرِ ثمنه، وأعطيت نصف المبلغ للحاج والنصف الآخر سأدفعه للضابط هنا ليسمح لي بالعبور نحو النجاة.

تململت مكاني وقد شعرت بالنعاس، غفوت للحظة خلتها دهراً، واستيقظت فَزِعاً على حلم استحضر من عمق ذاكرتي صوت القنابل وهديرَ الطائرات المحلقة، نهضت وتسكّعت بين أكوام النساء والأطفال والشيوخ المنتظرة عبورها من البوابة الرسمية للحدود إلى حيث النجاة من الدمار والموت هنا. عنين المرضى أرهق روحي، فابتعدت نحو جمهرة من الرجال يتحادثون بهموم النزوح والكارثة في الوطن، لاح طيف مدينتي عند الأفق، وبدت أعمدة الدخان فيها سوداء ملتوية وكأنها ثعابين خرجت من باطن الأرض ولامست عنان السماء، هناك تركت بيتنا نصف مهدم كما تركت حقل الزيتون ووجيهة ابنة عمي.

- هذه الليلة سأغادر يا وجيهة، سأشتاق لك كثيراً.

- بل ستهرب، وأنا لن أشتاق لأحد.

وبكتْ، حادة كانت نبرة صوتها، وغضبها بعثر الصفاء في صفحة وجهها فبدت لي مضطربة المزاج ومتشنجة التقاسيم وزائغة النظر. قلبها قسى وبات كالحجر ولم تعد وجيهة الوديعة والرقيقة التي أعرفها وقد ذبل الحب بيننا وكنا رويناه بصمت لذيذ منذ سنوات قليلة مضت. ربما كانت على حق وإني سأهرب إلى المجهول، فهنا أصبح كل شيء ملوثاً، حتى هذا الهواء وقد خسرت الكثير في حياتي وأصبحت مطارداً في الليل والنهار. أبي لم يحتمل الكارثة، فبكى وعلا الوجوم وجهه وأصابه الذهول، صمت لأيام عديدة لم يكلم فيها أحداً حتى وجدناه في أحد الصباحات الباردة ممداً فوق التراب

في الحقل القريب من البيت وقد فارق الحياة. وأمي غادرت البيت هرباً مع أخي الكبير وزوجته وأطفاله، ولم تعرف بعد بأن قذيفة طائشة قد أصابت شجرة الزيتون المعمرة في ساحة بيتنا الخلفية، كانت تقول دائما عن هذه الشجرة :

- هي أول أولادي، زرعتها يوم زفافي واعتنيت بها كأنها واحدة منكم، فاعتنوا بها كُرمى لي.

ماذا ستفعل إن علمت بأن شجرتها العزيزة قد هوت على الأرض وبانت جذورها وجفّ ماءها وأصبحت حطباً..؟، أم إن حزن الشتات طغى على قلبها المكلوم ولم تعد قادرة على بكاء شجرة وقد بكت الوطن النازف..؟.

تتوارد خواطري وأنا أستمع إلى شذرات من حديث الرجال وأحدّق بكل واحد منهم لبرهة من الزمن، يمجّون سجائرهم بشراهة، ويسعلون بقوة حتى تكاد أحشاءهم أن تنزلق من جوفهم وتتكوم أمامهم، والكآبة تعلو وجه الجميع، والإرهاق رسم هالة سوداء حول العيون الغائرة والحائرة، وخبأت تجاعيد السنين في وجه كل واحد منهم مأساة مختلفة وقصة جديدة. غادرتهم وعدت أمشي بلا هوادة، اشتد البرد وذابت الشمس خلف الغيوم الداكنة وخفّ نورها وبدت السهول الوعرة الحمراء حولنا وكأنها ظلال شاحبة لا لون فيها.

بكاء الأطفال أرهق أعصابي وخِلته خنجراً يحفر في قلبي وعقلي ووجداني، فوثب جنوني وصرخت بهم ليصمتوا فلم يزدهم هذا إلا بكاء من جوع أو برد أو خوف أو ربما من كل ذلك. إحدى النساء شتمتني باكية ورفعت يديها نحو السماء تشكوني وتنتحب، قرصني الجنون مجدداً، فتأهبتُ للانقضاض عليها لولا أَنْ ردعتني غريزة ما ولجمني الخوف فاكتفيت بالابتعاد عنها أجر أذيال خيبتي ورائي.

البرد لا يرحم أحداً، وبكاء الأطفال مازال يمزق صَمْتَ البراري حولنا، وأنا منذ الخمس ساعات أنتظر الضابط في هذه النقطة المتطرفة قليلاً وعليّ أن لا أغادرها وأن أنتظر فقط قدومه لي. الجموع البائسة تأتي وتغدو من أمامي وتختفي خلف بوابات العبور خارج الوطن، وأنا لا أقترب خشية أن يُفْتَضَحُ أمري.

حدّقت في الأفق البعيد وتساءلت أين أنا..؟، هل أعود إلى بيتي وحقل الزيتون ووجيهة أم أكمل رحيلي..؟، رحيل هذا أم هروب ..؟، البيت أصلحه، والزيتون أعتني به بعد طول إهمال، ووجيهة أعيد ابتسامتها بهمسةٍ مني، ولكن هل هذا أغلى من الروح إذ الموت يتربّص بها في كل الزوايا هناك..؟، كيف سأتوارى عن الأنظار وأنا في قائمة الملاحقين والمطلوبين حياً أو ميتاً..؟، وكيف سأهرب وقد بات اسمي في كل منافذ الوطن كممنوع من المغادرة..؟، ابن المختار صديقي القديم قال لي يوما:

- أَنْ تبقى هنا يعني أن تعيش في الجحور وفي الظلام لأنك مطلوب، عليك بالرحيل.

- إلى أين، وكيف..؟.

صمت وهو يعبث بأنفه الصغير ثم قال بعد برهة:

- إلى خارج البلد، تهريب عبر الحدود، عليك بالحاج أحمد، هو يعرف كيف.

واجتاحني سيل من التساؤلات أرهقت روحي المُتلفة، والبرد القارس شوّش عقلي، والضابط تأخّر ومضت ساعة أخرى حتى أتى. قصير القامة كان وكبير البطن والأرداف وأنفه ضخم في رأس صغيرة يعلوها شعر أحمر اللون وأشعث

الشكل، وخلف نظارته السوداء الكبيرة يُخفي عينين كم تاقت نفسي لأن أحدّق بهما وأعرف أي نوع من الرجال هو.

حادثني باسمي فخفق قلبي بشدة واقتربت منه بحذر. إنه هو إذا، شعرت بشعور مختلط من الرعب والاطمئنان. بادرني بالقول:

- هل معك باقي المبلغ..؟.

- نعم.

بسط أمامي كفّه المعروقة فوضعت له فيها رزمة نقودي. عشرة آلاف ليرة، انتظرت حتى أكمل عدّها، ومن ثم أشار لي بيده بأن أتبعه، فمشى متبختراً أمامي كذكر البطّ وأنا خلفه أتعثّر بخطواتي وقلبي يكاد أن ينفطر خوفاً. ماذا لو كان كميناً..؟، لا فالحاج أحمد دقّ على صدره وأقسم بأنه سيهربني خارج الحدود. مضت بنا الدقائق ثقيلة والسيارة تنهب الطريق الترابي الو عر وسط التلال وأَجَمات النباتات البريّة الكبيرة وبُرَك الماء التي أحدثها رذاذ المطر حتى اقتربنا من السلك الشائك، أمرني فلبيت ونزلت من السيارة، وجدت نفسي وسط زمرة من الجنود والسلاح والكل صامت ويطفو على وجهه العبوس، والرعب جعل قلبي يقرع في جوفي بعنف كطبل كبير. أحدهم أخذ مني حقيبتي الهزيلة ورماها من فوق السور ومدّ يده فوق الأرض ورفع غطاء كبيراً، فبانت لي أسفله حفرة ضخمة وقال بلهجة آمرة:

- انبطح أرضاً واعبرها زحفا على بطنك، هيا.

رميت نفسي بلا تفكير، فَهَوَتْ جثتي من علوها وارتطمتْ بالأرض كجذع شجرة يابسة، لامس أنفي الطين فشممت رائحة تراب مبلول أعادتني إلى حقل الزيتون وبيتنا ووجيهة

وأبـي وأمـي فانتحبـتْ أعمـاقي كَمْـداً وقهـراً وقـد اشـتدّ البـرد وترامى إلـى مسـامعي أزيـز رصاصـات متقطعـة بعيـدة جـداً، طأطـأت رأسـي أسـفل السـلك ودخلـت فـي حفـرة فـي الأرض يعلوها السياج الشائك، ودلفت إليها مثل ثعبان، زحفت لمتـرين أو ربما ثلاثـة حتـى بـان رأسـي مـن الجهـة المقابلـة، تلبسـتني وحشة مخيفة وكدت أن أعـود أدراجـي، لكنـي وقفت منتصـباً والطين يغطيني، تسمّرت مكـاني وسـمعت الضـابط يقـول مـن الجهة الثانية:

- تابع سيرك حالاً، سـاعة أو أقـل سـتجد نفسـك فـي البلـدة القريبة، وهناك تدبّر أمرك.

كـان الأفـق قـد ابتلـع الشـمس، واصـطبغت غيـوم السـماء الرمادية بلون برتقالي شاحب. تنفست بعمـق لأسـتعيد سـكينتي وشعوري بذاتي ومكـاني وزمـاني، فتحسّـس أنفـي هـواءً غيـر الهواء الذي اعتدت، نظرت بعيداً فكانـت مـدينتي بعيـدة جـداً، عني وبعض الأسلاك تفصلني عـن وطنـي وبعـض الخطـوات أيضا وأنا أضعف مـن أن أعبرهـا ثانيـة أو حتـى أقتـرب منهـا وألمسها. بات وطني اليوم هو الشتات وتراءى لي وجه وجيهة محزونـاً، ورأيـتُ عينيهـا دامعتـين، وشـعرتُ بروحهـا تحـوم حولي وتمسّ شغاف قلبي وكلماتها الأخيرة لي كانت وخزة في صميمي المرهق. أدركت بأني قد أصـبحت شـريداً بـلا وطـن، وروحي قد غزاها الخريف وتبعثرت كورق الشـجر الأصـفر، وإن آخر أوراقي قد سقطت وبدوت عارياً تمامـا كأشـجار هـذه البـراري المبلولـة والغارقـة فـي الصـمت. الـدمع طـرق مـآقيّ فقاومتـه، أدرت ظهـري وحاولـت أن أتـابع سـيري لكنـي لـم أستطع وكأن شللاً أصابني وبدوت وسط هذه القفـار كتمثـال لا حيـاة فيـه ولا روح. أغمضـت عينـي بكفـي لأحـبس الـدمع

المتمرد ففشلت، تخايلتُ البيت والزيتون ووجيهة وأبي وأمـي، فانهرت باكياً أنحب كطفل صغير.

وفي غمـرة أوجـاعي سـمعت صـوت وجيهـة يقـول بحـزم وبرود :

- يا حيف على الرجال أن تبكي، يا حيف.

حارس ليالي القصر

اثَبتْ يا جاد الكريم ولا تنم وكن يقظاً، فالقصر الآن أمانة في عنقك، والأمانة ثقيلة كما تعرف. البيك غادر مع عائلته اليوم صباحاً في إجازة لأيام عديدة، وكذلك غادر البستاني العجوز والطباخ الوَقِح والخادمة الجميلة ولم يبقَ سواك هنا لتحرس هذا القصر الكبير، فاثَبتْ وكن بحجم مارُمي على عاتقك من مسؤولية كبيرة. من اليوم وحتى مساء بعد الغد فأنت سيد هذا القصر وجنانه الخضراء النضرة، أنت هنا كل شيء الآن، وقد بات المكان بما فيه يأتمر بأمرك أنت وحدك، ولن يعلو صوت فوق صوتك يا جاد الكريم.

قُم من على سريرك الخشبي المتهالك في غرفتك الصغيرة عند البوابة الرئيسية، وامشِ هنا وهناك في جنبات هذا القصر وزوايا حديقته المظلمة، فلعل السارق الخبيث أ ن يأتي من أماكن أنت تعرفها جيداً بعد خمس سنوات قضيتها في حراسة هذا المكان. امشِ الهوينة وتنحنح يا جاد الكريم، فصوتك الأجّش قد يرعب كل من تسو ل له نفسه أن يقترب من سور القصر. امشِ بحذر وصمت، ودع عينيك تراقب كل حركة حولك، ولا تَأمنّ سكون الليل، فالليل ساتر العيوب ومخبأ الويلات يا جاد الكريم، وإيّاك ثم إيّاك الغفلة، فهذا القصر الجميل الآن أنت حارسه وأمينه، وتذكّر قول البيك لك بلهجة صلفة قبل يومين:

- سنسافر في رحلة استجمام لثلاثة أيام، لن يبق في القصر سواك، فكن حريصاً عليه، واحذر.

نعم، نعم، فالبيك وضع ثقته بك، وكل أمله أن يبقى قصره بخير معقود عليك أنت، صحيح إنه رفع سبابته بوجهك وهدّدك بالعقاب إن بدر منك أي تقصير، وأقسم بشرفه أن يربطك بشجرة السرو هذه إن حدث أي مكروه لقصره في غيابه، لكنه وثق بك على أي حال ومضى في رحلته آمنا مطمئناً، ومضى كذلك الخدم معه، وانطفأت الأنوار وبقيت أنت وحدك يلفك صمت هذا القصر وحديقته الكبيرة الرائعة بوقار وجلال كبيرين. نعم اعتدت هذا منذ الخمس سنوات التي مضت، لكن هذه هي المر ة الأولى التي تجد نفسك فيها يا جاد الكريم وحيداً تختال بمشيك كالطاووس في الحديقة والردهات المترفة وكأنك السلطان، نعم السلطان، ولما لا يا جاد الكريم..؟، أتصدق ما قالته لك زوجتك المجنونة بالأمس:

- يا رجل اعقل، إذا البيك قال لك بأن القصر أمانة عندك فهل أصبحت بيكاً..؟، أنت جاد الكريم وستبقى كذلك حتى لو حرست القمر.

غبية زوجتك هذه فلا تعطها اهتمامك، والبيك الآن بعيد ويستمتع بإجازته وقلبه يغمره الاطمئنان والسكينة بأن قصره في يدٍ أمينة مثلك يا جاد الكريم، فكن حذراً، وكن بحجم ثقته، ولا تنم ولا تغفو خلسة كما تفعل في بعض الليالي، فالآن أنت بمفردك هنا، والقصر خاوي على عروشه، والأطماع تحدّق به من كل حدب وصوب، وربما بعض اللصوص المّكرة يعرفون بأن حارس هذا القصر عجوز ستيني متهالك أنهكته السجائر وأنهكه السهر، لكنك يا جاد الكريم تملك البندقية، نعم البندقية، ومحشوة هي بست رصاصات كل واحدة منها تقتل الدبّ إن مسّته مساً طفيفاً، فلا تخف ولا تخش أي شيء، وفقط كن يقظاً ولا تغفو ولا تبق جالساً في غرفة محرسك، فهناك الدفيء والسكون يتربصان بك وقد تنام كما حدث قبل

ذلك كثيراً وتغفل عن الحراسة، وإن غفوت وحدث أي شيء فالبيك يا جاد الكريم قد أقسم بشرفه ليربطنّك في شجرة الصنوبر هذه. تنحنح واضرب بعصاك الأرض، واجعل الفزع يدّب في قلب من يحاول الاقتراب من قصرك المنيف، قصرك يا جاد الكريم نعم، هذا قصرك الآن، فالبيك ليس هنا وزوجته سليطة اللسان أيضا ذهبت وكذلك طفلاه المزعجان، لا يوجد أي بشر هنا غيرك أنت فلماذا لا يكون هذا القصر قصرك أنت..؟، ألستَ من حّرَسَ هذا البناء الرخامي الضخم وهذه الحدائق الغنّاء لسنوات طويلة..؟، حتى وإن كان البيك ينسى اسمك و يظنك البستاني في بعض الأحيان لكنك الآن أنت حارسه الذي تَردُ عن حياضه الأذى شاء من شاء وأبى من أبى، أليس كذلكَ يا جاد الكريم..؟، إذاً ارفع صوتك بالأوامر عالياً، فالكل حولك سينصاع لامحالة، وصوتك الجهوري سيرعب الجميع حتى وإن كان ما يزال لا يرعب زوجتك بل يضحكها إن رفعته بوجهها، لكن هذا في البيت أما هنا وفي هذا الصمت الثقيل فصوتك سيدوي في الأرجاء كدوي الصاعقة. ادخل قصرك وتسكّع في طرقاته الفخمة، هذا المطبخ حيث يصول ويجول به الطباخ الوّقِح، إن طلبت منه بعض الطعام الآن وأنت سيد القصر فهل سيتجاهلك كما يفعل دائما..؟.

وهذا الحمّام، أحمام هذا وهو بحجم بيتك يا جاد الكريم..؟، ما هذا البيك الجشع..؟. لوحات وأواني خزفية وسجّاد تغرق القدم به. جدران ملساء كخد الخادمة مطلية بألوان زاهية، هل دخلت قبل اليوم إلى هنا يا جاد الكريم..؟، نعم كثيراً، لكن رأسك يكون مطأطئاً ولا ترى سوى صورتك في رخام الأرض وأنت تتلقى الأوامر والتنبهات أو التعنيف من سيدة القصر الشمطاء. أه كم هي عزيزة أمنيتك بأن تمسك بتلك المتصابية ولو لمرة واحدة وأن تفعل بها فعلك المجنون أيها

المجنون، أفكارك شيطانية يا جاد الكريم ولا تليق بعجوز مثلك فاحذر أن تشتم زوجتك أفكارك هذه، احذر.

هذا الدرج العالي يصل بك إلى الطابق الأعلى حيث تنام العائلة الغنية كما تعرف من حديث الخدم العابر، خلف هذه الأبواب الخشبية الموصدة بإحكام ينام البيك وعائلته، وخلف أحدها يمتطي زوجته الشمطاء في لياليه المخملية، وّغد يركب وغدة يا جاد الكريم، وكفّ عن عبث المخيلة المتصابي فقد كبرت على هذا وأصبح عمرك في أرذله.

الطرقات هادئة، وأركان القصر محشوة بالعظمة والفخامة، والثراء الفاحش يقطر من كل بقعة هنا. واحدة من هذه التحف الفاخرة تطعمك خبزاً لعام كما يقول الطباخ الوّقِح، ولوحة واحدة من هذه اللوحات المعلقة على الجدران بغباء تشتريك بماضيك يا جاد الكريم، وتتساءل لماذا البيك متعالي ويمشي الخيلاء ويعامل الجميع كالعبيد..؟، وأنت يا جاد الكريم الآن العبد الأكثر ظلماً إذ الكل نيام وأنت يقظ وتحرس هذه التفاهات لهذا البيك الأهبل، إن أحرقتَ له كل شيء الآن فهل هذا يبدد شعورك بالعبودية الذي لازمك لسنوات طويلة..؟، خمس سنوات وأنت تحتمل من البيك كل الجفاء ومن ثم الجفاء، وهانمه الشمطاء تصرخ بك كلما خرجتْ أو دخلتْ من باب قصرها هذا، وطفلاه يزعجانك في سكينتك ووحدتك العزيزة، خُذ مكانه الآن واصرخ بالجميع هنا، ولا ترحم الطباخ والبستاني والخادمة، وحتى ذلك الحارس الذي يقبع كالقرد في غرفته عند باب القصر، لا ترحم أحداً يا جاد الكريم فأنت الآن سيد هذا المكان، وانظر في كل هذه العظمة المحيطة بك، هي الآن لك وحدك وأنت هنا السيد الكبير، البيك، الآمر والناهي، وأنت وحدك من يحق له أن يصرخ ويشتم الآخرين. انظر إلى نفسك في هذه المرآة الكبيرة،

قسماتك جادة وتجاعيد وجهك ارستقراطية توحي بأنك خلقت لتكون سيداً يا جاد الكريم وليس حارس قصير وضيع، تمعّن في ذاتك وارفع رأسك عالياً بشموخ إذ أنت السيد الآن، ولتأتي زوجتك الغبية لتراك وأنت في قمة مجدك هذا، فهل سترفع صوتها بوجهك بعد اليوم أو تسخر من كل ما تقوله..؟. نادي الجميع يا جاد الكريم، الآن وبأعلى صوتك نادي الجميع، اسمع الصدى حيث تتقاذفه الجدران ويدوي في فراغ هذا البناء الضخم، لا خوف من ذلك فالسارق إن كان يقترب الآن من القصر وسمع صوتك هذا فقد بالَ تحته ولاذ بالفرار. الآن ترى وكأن الجميع أمامك هنا، مخلوقات بائسة تكاد أن تسمع أسنانها تصطّك ببعضها البعض خوفاً ورعباً يا جاد الكريم، فأنت الآن البيك وهم العبيد، تراهم واقفين مطأطئ الرؤوس أمامك: الطباخ والبستاني والخادمة اللذيذة، أين ذلك الحارس الكسول يا جاد الكريم..؟، تصيح بهم بعالي الصوت:

- جاد الكريم، أحضروا لي ذلك الوغد من محرسه.

ويأتيك الحارس مهرولاً ومتعثراً بمعطفه الطويل ويقف مع الواقفين ويحدق كما يحدقون في الأرض الرخامية. الصمت يرفرف فوق الرؤوس وأنت البيك الآن، وحدك من يحق له أن يتكلم ويسعل ويعطس ويغني ويبكي والجميع سكوتا. من أين ستبدأ بتلقينهم الدرس يا جاد الكريم..؟، من الطباخ الوّقِح..؟، لا فقد يحنّ قلبه عليك يوماً ويأتيك بأطايب الطعام إلى محرسك كما تتمنى وترجوه كثيراً، فدعه. هل أوبخ البستاني..؟، عجوز متهالك هذا يا جاد الكريم ولا يلقى صوتاً واحداً، دعه وشأنه فالثرثرة معه في بعض الأحيان تريح قلبك وتبدد كربك وهمّك. إذاً الخادمة الجميلة يا جاد الكريم، وكيف تعنف الورد وتهز سكونه..؟، وكيف بجمالها ستصرخ يا جاد الكريم..؟، دعها فربما تحنّ عليك يوماً وتستجيب لنهم عينيك

كما تتمنى في خلواتك الشيطانية. بقي هذا الحارس العجوز فلا ترحم به ولا عظمة يا جاد الكريم. تصرخ بصوت هزّ أركان القصر:

- جاد الكريم، يا ابن الرذيلة، اقترب مني.

تبتسم بمكر وقد أربك الخوف أعماق هذا البائس المسكين، تشير بسبابتك فينصرف الجميع وتختلي بالحارس يا جاد الكريم، تذكّر بأنك أنت البيك الآن وعليك معاقبته على ما يرتكبه من جُنحات لا يعلم بها أحد غيرك، انظر إليه في المرآة الكبيرة، لا تشفق عليه ولا يخدعك مظهره البائس، لا شفقة معه لأنه ماكر وخبيث وإن بدت عليه الطيبة، وأنت الآن البيك ويجب أن تضع حداً لما تعرفه عنه. تلقي عليه نظراتك المتفحصة فيتقصّد جبينه عرقاً ويطرق أرضا وهو يعبث بأصابعه وعيناه زائغتان في نقوش رخام الأرض الجميلة، خجول منذ طفولته هذا الحارس فكيف مضى به العمر حتى أرذله ..؟، وكيف أنجب أولاده من زوجته..؟. من أين تبدأ..؟، تصرخ به بصوت عالي:

- جاد الكريم، إني أعرفك جيداً، أكثر مما تعرف نفسك أنت.

تضطرب حركاته، وصوتك المرعب يقول:

- إن كنت تظن نفسك بمأمن من عيوني فأنت مخطأ، أنا هنا سيد هذا المكان وأعرف كل شيء يحدث فيه في الخفاء.

يزداد اضطرابه وعرقه وصمته، وبعد برهة صمت وجيزة تقول له:

- أنت حارس هذا القصر، وأميناً على أرواحنا وممتلكاتنا وإذا بك تنام خلال عملك يا غبي..؟، أهذه لقمة الحلال التي تفاخر فيها الناس حولك وتطعمها لأبنائك..؟.

الحارس المسكين يكاد أن يغمى عليه أمامك وقد آوى إلى الصمت وبدت عليه ملامح الاحتقان والأسف، ويستمر توبيخك له:

- وأعرف بأنك حاقد، وتشتمنا في قرارة نفسك، وتدعو علي وعلى أطفالي بالفناء. أيجوز هذا أيضا..؟، قلت لك بأني أعرف كل كلمة تنطق بها في ذاك المحرس القذر أيها القذر، وأعرف كل المعرفة ما يجول في خاطرك وما تشتهيه نفسك الدنيئة.

ند ت عنه همهمة مضحكة وهو يقول:

- سامحني يا بيك.

- على ماذا أسامحك ..؟، على إخلاصك في العمل، أم على دفء لسانك وضميرك وقلبك اتجاه صاحب رزقك..؟.

توسّل إليك بهمهماته وأنت تبتسم على منظر انكساره، يجب أن تلقنه درساً يقوّم حاله، لأن فراغه ووحدته تجعلان منه شيطاناً لا إنسان. يسود الصمت قليلا وتقول له:

- ثم إني أعرف أفكارك البذيئة اتجاه الخادمة، ألا تخجل من نفسك وقد بلغ بك الكبر عتيا..؟، هل أذكّرك بالليالي التي كنت تتلصص عليها من نافذتك كلما خرجتَ أو دخلتَ..؟، أم أصف لك كيف تحلم بها في وحدتك أيها الفاجر المراهق..؟.

اصطبغ وجهه بحمرة الخجل، يكفي هذا يا جاد الكريم وقد كسرت المسكين أمامك، دعه فكاد أن يذوب في ثيابه الرثة

هذه، لكنك تبتسم بمكرٍ منتشياً بنشوة السلطة التي تتغلغل في ثنايا في روحك القلقةً والجبروت يغريك للبطش، ونفسك لم تُشبع ساديتها بعد فصرخت عليه بعد فترة لم تسمع فيها إلا نحيبه واعتذاره:

- اخرس ولا تختبأ خلف دموعك، أعرفك حق المعرفة يا جاد الكريم، وأعرف أفعالك التافهة في حديقة القصر وكيف تسرق الفاكهة وتخبأها في ثيابك لتأخذها إلى بيتك. وأعرف كيف تراودك نفسك على السرقة، وأسمع همسات شيطانك ووسوساته لكي تؤذي القصر ومن فيه، ولكن حذاري يا مجنون، حذاري من بطشي إن فعلت وانقدتَ لشيطانك الوسواس.

صمتٌ كصمت المقبرة، والظلام تكسره بعض الأنوار المنتشرة في جنبات حديقة القصر. تزداد تجهماً ويزداد هو انكساراً وذلاً، وما زلت تحدّق به في المرآة الكبيرة. عيناك الحادتان مغروزتان في عمق عينيه المندهشتين، حجمك يكبر ويزداد هو ضآلة، وتبدو أمامه كمارد وهو بدا كالذبابة أمام قدميك. يستنجد رحمتك فلا يجد منك إلا صمتاً ووجهاً مُكفهراً ، يهرول نحو الباب ويفتحه فينساب ضوء فضي خافت، هو نور القمر، ومعه تتسلّل نسمة باردة تحمل رائحة الياسمين الذي يتضوع شذاه في الحديقة. تلتقي عيناكما، كالنار كانت نظرتك ملتهبة، ونظرته كانت كالحطب جافة، فيشتعل الصمت بينكما، ولا يقدر على نيرانك فيغلق الباب ويهرول بسرعة نحو محرسه، يدخل ويغلق الباب بإحكام، وأنت تبقى تهيمن على ذاكرته حتى تلاشيتَ مع دخان سجائره الكثيف بعد أن انزوى في زاويته يدخن مضطرباً، ولسانه يتمتم بأدعية وتوبة واستغفار.

وقد مضى الهزيع الأول من الليل حتى استطاع جاد الكريم أن يستعيد نشاطه ويطل برأسه من محرسه مجدداً وقد بدا إنه منهك الروح وشارد العقل وتائه النظرات. ومضى يمشي في جنبات القصر وحديقته وهو يلعن النوم، ويلعن لسانه الثرثار، ويلعن كذلك الخادمة الشهية والفقر الذي أجبره على أن يلوك في مخيلته كل تلك الأفكار السوداء.

كنـزي العتيق

- أتعلم ما هذه..؟.

- لا.

- إنها إشارة تدّل على وجود كنز مدفون في مكان ما هنا.

- كنز ..؟.

لم تخطئ أذني وسمعت قريبي يؤكد على وجـود كنـز فـي هذا الحقل بعد أن وجدنا إشارة وبالصدفة محفورة علـى إحـدى الحجارة الملقاة عند باب الحقل. والحقل كبير وقريب من بيتنا، وله تضاريس طبيعية جميلة. ويتابع قريبي تأكيده بأن مثل هذه الإشارات تُحفر على الحجارة للدلالة علـى مكـان كنـز مـدفون في مكان ما. نحدّق بالإشارة ونقارنها بما شـاهدناه فـي بـرامج الأطفال وما سمعناه مـن قصـص خياليـة، فيتحـوّل الشـك لـدينا إلى يقين، ونقفز فرحاً لاكتشافنا كنز، ودون أن ندرك ما الفائدة من أن نجد كنـزاً..!!، كـل مـا نعرفـه إنـه آلاف القطـع الذهبيـة والمجوهرات النفيسـة، حسـناً ومـاذا سـنفعل بهـا..؟، لـم نسـأل أنفسنا هذا السؤال لأن مفهومنا عـن الفقـر والغنـى لـم يكـن قـد تكوّن بعد، وكنا نحيا حياة مليئة بحب الاكتشاف والمغامرة.

ونجلـس علـى الأرض الترابيـة، وعقـدنا اجتماعـا أحطنـاه بمستوى عالي من السريّة ومستوى عالي ودقيق مـن التخطـيط

والجديّة، نرمي القرعة بيننا لانتخاب قائداً للحملة كعادتنا، فيفوز بها قريبي ويبدأ رسم الخطط.

- جدتي، هي الشخص الوحيد الذي يعرف مكان الكنز، و ربما هي من دفنه هنا مع جدي.

- ولماذا جدتي..؟.

يقطب شريكي باهتمام مفكراً ثم يقول:

- هي صاحبة الحقل الآن، وهي من كان يرافق جدي للعمل فيه.

- نعم، هذا مقنع.

- يجب أن لا نخبرها إننا اكتشفنا وجود الكنز هنا.

- لماذا..؟.

- لكي لا يضيع منا.

- كيف سيضيع ..؟.

- المهم أن لا تعرف ويجب أن نجعلها تخبرنا بوجود الكنز بنفسها.

- كيف..؟.

- بالحيلة.

لم أفهم ما يعنيه، وهو بدا عليه وكأنه يتصرف بدون أن يعرف أجوبة لما يقوله، فلماذا سيضيع الكنز ولماذا يجب الاحتيال على جدتي لمعرفة مكانه..؟، وبدا تصرفنا كله نتاج لمخاض مخيلة تزخر بالقصص، وكنا بلا إدراك نعيد تمثيل إحدى قصص المغامرات في الرحلات الأسطورية للسعي

وراء الكنوز المدفونة على إحدى الجزر النائية في عرض المحيط، والتي كانت أعمال البحث فيها تتم بسرية تامة.

في تلك اللحظات لم تفارق ذهني أشكال المستكشفين وأدواتهم وخرائطهم وساعاتهم وأرجلهم الخشبية وأربطة أعينهم السوداء، بل وتمادتْ المخيلة لاستجلاب سفينة كبيرة جداً تمخر عباب هذا الحقل، فلا يهم وجود بحر طالما إن السفينة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالكنوز والبحث عنها في مخيلتنا الحيوية.

وضِعَتْ الخطة ونهضنا للشروع في العمل. يجب علينا أولاً أن ننطلق من الإشارة التي عثرنا عليها والتي ستقودنا إلى حل ألغاز هذا الكنز وتحديد موقعه ولو بشكل تقريبي. وقفنا أمام الحجر نعاين الإشارة، ثلاثة خطوط شبه متوازية ومنحوتة بالحجر بفعل عوامل الطبيعة، ومن شكلها بانت لنا وكأنها من صنع إنسان ما، وبدأنا البحث عن التفسيرات لما نراه:

- ماذا تعني لك..؟.

- تقول: سِرْ باتجاه هذه الخطوط وستكتشف مكان الكنز أو وجود إشارة أخرى.

وللخطوط اتجاهين فبأي اتجاه نسير..؟، وكان الجواب لذلك:

- بما أن الحجر موجود عند باب الحقل وأحد اتجاهات الخطوط تتجه نحو بابه فهي تشير إلى خارجه ولا يُعْقَلُ أن تدفن جدتي كنزها خارج حقلها بل بداخله، إذا سنسير بالاتجاه المشير إلى داخل الحقل وبخط مستقيم تماما .

يقف أحدنا عند الحجر ويضع عينه عليه ويغمض الأخرى ليرى الخط المستقيم النظري الخارج من الخطوط ، بينما الآخر يسير بتوجيهات المراقب من مكان الإشارة.

- سِرْ ، سِرْرررر، انعطف نحو اليمين قليلاً، نحو اليميييييين، ليس كثيراً، خذ يسارك قليلاً ، قِفْ مكانك، هل لفت انتباهك شيء مااااا..؟.

- لاااااا.

- إذاً سِرْ قليلاً نحو الأمام، لقد انحرفتَ يساراً كثيراً، هكذا أفضل، أنت في مرمى النظر تماماً، ماذا وجدت..؟.

- لا شيء.

وأنهكنا الصراخ والحديث من مسافة بعيدة. والمنطقة الموجودة أمام الخطوط الثلاثة عبارة عن سهل ترابي واسع لا شيء فيه يلفت الانتباه، ولم نجد أمامنا سوى شجرة الصنوبر المرتفعة بشموخ في السماء كسارية سفينة، وعلى الفور، وخوفاً من انهيار الأحلام الوردية المتواردة علينا منذ بدء هذه المغامرة، قرّرنا بأن شجرة الصنوبر هذه هي ما تشير إليه تلك الخطوط المتعرجة على الحجر باعتبارها - الشجرة - معلماً بارزاً من معالم هذا الحقل، فركضنا نحوها بظفر كبير.

- هل الكنز مدفون أسفل هذه الشجرة..؟.

- لا.

- ولماذا..؟.

- لا تُدفن الكنوز في أماكن مكشوفة وظاهرة للعيان، فكل شخص يشك بوجود كنز أسفل الشجر.

إنه قائد هذه الحملة وواضع الخطط ومفسر كل شيء فلا شك بقوله أبداً. إذاً شجرة الصنوبر هي الإشارة التالية ولا بد إنها تحمل إشارة ما ترشدنا إلى مكان الكنز أو إلى إشارة أخرى. نقف تحتها ونحدّق بأغصانها ونتساءل عن الإشارة التالية باهتمام بدى بنظرات أعيننا. هل الإشارة هي اتجاه الأغصان..؟. لا يمكن ذلك، فجدتي لا تتحكّم بنمو الأغصان، وما أمكنها أن تضع اتجاه الغصن كإشارة لوجود كنز ما، إذاً هناك إشارة ما تدل على ذلك. ويمر بنا وقت بدا كالمارد بطوله وعرضه وثقله حتى صاح أحدنا:

- المسامير.

ثوان مضت حتى أدرك الآخر ما معنى هذا فصاح بدوره :

- نعم، المسامير، إنها الإشارة الثانية.

وبسرعة تسلقنا الشجرة، وفي أعلى الوسط منها غصن دُقّتْ فيه ثلاثة مسامير صغيرة، ومع مرور الزمن حولها الصدأ إلى لون بني داكن، وكانت تبدو لنا بأنها موجودة منذ زمن بعيد جداً. لم نتساءل يوما عن سبب وجودها هنا، وكنا نراها وكأنها لا شيء أبداً. تسلّقنا الشجرة وأخذنا نعاين المسامير:

- اثنان في اتجاه واحد والثالث في اتجاه آخر.

- المسمار الثالث يدل على مكان الإشارة الأولى وهي الخطوط على الحجر عند مدخل الحقل.

- إذا اتجاه المسمارين المتلاصقين هو مكان الكنز أو مكان وجود إشارة أخرى.

وبعد هذا التفسير تتبعنا اتجاه المسامير بأعيننا فاستقرت على كومة من الحجارة بجانب شجرة تين مُعمرة في إحدى زوايا الحقل. تتسع العيون دهشة وتعمل المخيلة بنشاط كبير وتتوالى التفسيرات:

- مكان منعزل في إحدى الزوايا، وكومة من الحجارة.

- وشجرة التين، هي إشارة أخرى على مكان الكنز، طالما جدتي حدثتنا عن هذه التينة وكيف كان جدي يستريح أسفلها ويتناول طعامه.

- نعم، إنها إشارة واضحة ومكان ملائم لوجود الكنز.

- طبعا الكنز ليس أسفل التينة بل أسفل كومة الحجارة، فلا وجود للكنوز أسفل الأشجار.

- ربما لا كنز هناك بل إشارة أخرى.

- ربما.

ونعتلي كومة الحجارة تلك ونعاين بعضها بأعيننا دون أن نعثر على إشارة تقنع أحدنا بأنها تدل على وجود كنز ما هنا، وإن وجدنا من النقوش الطبيعية على الحجارة الشيء الكثير والكثير، وكان كل واحد فينا يجد نقشاً لا يقتنع به الآخر ويدور بيننا جدل كبير حتى نتفق على الرفض ونعاود البحث من جديد. ومرّتْ الساعات ونحن بهذه الحال حتى جلسنا أخيراً منهكين من التعب واليأس، ولنقرر، واستجلاباً لنهاية هذه المغامرة المحرضة لأحلامنا، بأ ن الكنز موجود أسفل هذه الكومة من الحجارة وذلك لعدم وجود أي إشارة أخرى تدلنا عليه، مكتفين بالمسامير وشجرة التين المعمرة والإشارة الأولى عند باب الحقل، وبدأنا عل الفور بالتخطيط للخطوة

الأصعب والأهم وهي استدراج الجدة للبوح بما لديها عن الكنز المزعوم.

ونجلس بجانبها بكثير من الاهتمام والحذر والمكر يلمع في قاع أعيننا السوداء الصغيرة متجاهلين على مضض ما تعده لنا من طعام لذيذ. أعلن القائد بدء التنفيذ بقوله المفاجئ:

- كنا في الحقل.

لم يبد على الجدة أي اهتمام أو أثر ما لاح في وجهها، فخاب جزء كبير من الآمال العريضة. ويتابع:

- لو تدرين يا جدتي ماذا رأينا هناك.

تتابع الجدة عملها في إعداد الطعام وتنصت برتابة زادت خيبة الأمل فينا. أي كنز تخبأه في الحقل وهي لم تكترث حتى لوجودنا هناك..؟، فلنتابع على أي حال:

- شاهدنا أفعى طويلة، فلحقناها للإمساك بها.

فعلت هذه الكذبة الصغيرة فعلها بالجد ة، فتركتْ عملها والتفتت إلينا باهتمام بالغ تحثنا على المزيد من الكلام وقد تبدّلت نظرتها الوادعة إلى أخرى توحي بكثير من الوعيد والتهديد. وقعت إذا بحبائل حيلتنا، والأفعى في نظرنا صديقة الجدات كما توحي لنا المخيلة الزاخرة بالخيال، وإنها تقتنيها وتأمنها على أشياءها لتحرسها لها، وكنا نعتقد بأن لجدتي أفعى تحرس كنزها ذاك. قالت الجدة بشيء من التوتر:

- وكيف تلاحقون الأفاعي في الحقل..؟.

- لحقنا بها إلى كومة الحجارة التي بجانب شجرة التين الكبيرة.

اتسعت عيناها غضباً في حين تحرّك الظفر بأعماقنا ونحن نراقبها وهي على تلك الحال، وكان خيالنا في نفس الوقت يرينا الحفرة الحجرية التي في باطن الأرض حيث الكنز موجود فيها، ونرى أنفسنا نهبط بضع درجات حجرية، ومن ثم نزيل خيوط العنكبوت من أمامنا ونستطلع الحجرة القديمة لنجد في قعرها صندوقاً خشبياً صُفِّحَ بالحديد وغطاءه مرفوع قليلا ويشع من أسفله نور أصفر خلاّب المنظر، فنقترب ونرفع الغطاء ونغمض أعيننا من بريق الذهب والمجوهرات، انقطع حبل الأحلام عندما فزعنا على صرخة جدتي في وجهنا:

- ألا تخافون لسعتها..؟، لا ذهاب لكم بعد اليوم إلى الحقل.

- لماذا..؟.

احتججنا، فارتفعت نبرة صوتها وأوحت بغضب شديد وقالت :

- تذهبون لملاحقة الأفاعي السامة..؟.

وجاءت اللحظة الحاسمة حسب المخطط عندما قال أحدنا:

- دخلت الأفعى في وكرها في كومة الحجارة، أتدري ماذا شاهدنا عليها..؟.

- لا أريد أن أعرف ، بل سأتصرف مع شيطنتكم هذه.

- شاهدنا يا جدتي خاتماً ذهبياً كبيراً معلقاً في ذيلها، كبير جداً يا جدتي وعليه جوهرة حمراء اللون.

الأفعى حارسة الكنز كما أرادتها المخيلة أن تكون، وهي تستلقي على القطع الذهبية والمجوهرات طوال يومها، ولابدّ

من أن يعلق بجسمها شيء من ذاك الذهب، والأفعى ستخرج حتماً من جحرها لتأكل، وإذا أوهمنا الجدة بأننا قد رأينا أفعى يحيط بجسمها خاتم من الذهب وبجانب التينة الكبيرة التي بجانب كومة الحجارة - المكان الافتراضي للكنز المزعوم- فستبوح بحقيقة كنزها المخبأ هناك لأننا كشفنا الحقيقة ولم يعد هذا سر. هذا ما كنا قد اتفقنا عليه من خطة لاستدراج الجدة بالحيلة والمكر، لكن المفاجأة كانت عندما تابعت جدتي غضبها ولم تكترث لأوهامنا تلك وقالت بصوت عالي:

- وتكذبون أيضا ..؟، سأربيكم جيدا.

نهضت إلى عصا الخيزران التي دائما تهددنا بها، فكانت الأرجل الصغيرة قد انتعلت أحذيتها وانطلقت تسابق الريح لتنجو بنفسها من العقاب، وتهديدات الجدة كانت تلاحقنا وتغمرنا كحبات المطر.

على كومة الحجارة تلك أمضينا بقية اليوم حتى حلّ المساء علينا ونحن نتجادل ونفسر أقوال جدتي وأفعالها وماذا ستفعل بنا إذا عدنا إلى المنزل، وكنا نتساءل: والكنز أهو موجود أم لا..؟، حاولنا إزالة بعض الحجارة، لكن التعب أنهك قوانا، فتخلينا عن الفكرة بعد أن تعاهدنا على أن نبقي الكنز مكانه حيث هو ونعود إليه عندما نكبر لاستخراجه طالما إن الإشارات معنا ونحفظ مكانها جيدا.

وعدنا عند حلول الظلام متسللين بحذر، وطوينا صفحة يوم حافل بالمغامرات والتخيلات واصطناع الحيل واختلاق المنطق الأعوج لمغامرة تحدثنا عنها الكثير والكثير فيما بعد، والتي كلفتنا أياماً قاسية من غضب الجدة علينا، وحاولنا كثيراً إقناعها بأننا لم نكن نلاحق الأفاعي في الحقل، ولم نجرؤ يوماً حتى على الاقتراب منها، وما قولنا هذا إلا حيلة أردنا أن

نمثلها لاكتشاف الكنز، ولم يرحمنا كل هذا من العقاب على خطأ لم نرتكبه أبداً عندما زعمنا إننا نلاحق الأفاعي السامة في الحقل.

****

مازال الحقل على حاله وإن طرأت عليه بعض التغيرات القليلة، وما زلتُ كلما ذهبتُ إليه تقع عيني على ذلك الحجر في بداية الحقل حيث الخطوط الثلاثة المتوازية والتي اعتقدناها إشارة لكنز ما، ودائما أبتسم وأقول لنفسي:

- لقد صدق الظن بها على مرّ الزمن وأصبحت إشارة إلى كنز غادرني منذ زمن وليته يعود، إنه طفولتي.

ثقبٌ في ذاك الجدار

من جديد حبست أنفاسي وزحفت بجسدي الهزيل فوق تراب الأرض. حريصاً كنت على أن لا يسمع دبيب أطرافي حتى من يبعد قيد الأنملة عني وأن أبدو كشبح لا يُرى أو كثعلب يتسلل بصمت وحذر نحو فريسته. وصلت الجدار، مارد إسمنتي يطال عنان السماء ويفصلني عنها، لامسته بأطراف أناملي بحذر وتحسسته بيد مرتجفة وقلب وَجِل ، تسارع لهاث أعماقي المضطربة وأنا أمرر يدي برفق على سطحه الخشن حتى تلاشى ذعري الذي يسكنني كلما ألمس جداري هذا وحلّت مكانه طمأنينة قلقة، فأخذت إلى صدري نفساً عميقاً استعدت به بعض توازني وخففت به شيئاً من اضطرابي، تفحّصت المكان حولي حتى اطمأن قلبي تماماً، فاستدرت نحو الجدار ووضعتُ عيني على ثقب صغير به قد صنعته طيلة ليالي ظلماء مضت بصبر وأناة، وأرسلت نظر عيني بعيداً.

هيفاء فارعة الطول على مرمى النظرة مني تجلس وتمشط حرير رأسها تحت شمس آذار الساطعة. يافعة، نضرة ، شهي وصلها، ولها سحر تنتشي به بواطن قلبي الجاف ويرقص لها طرباً. وددت لو كان لي ألف لسان لأناديها، وألف يد لأمدّها من هذا الثقب نحوها، عيني التصقت بذاك الثقب تتأملها كما فعلتُ قبل ذلك كثيراً جداً، ومنذ أن وعيت دنياي كنت لا أراها إلا وتزداد بهاءً ويزداد أنا شقائي، وإن فصلني عنها هذا الجدار فقط فخوفي وضعفي أوهماني بأنها تبعد بعد القمر عن يدي هذه ووصلها مغامرة جريئة قد تشل، وقد تكون قاتلة . بدأ الغليان في قلبي يزداد، وتفجّرت أنهار أعماقي

الحارة والملتهبة. ساحات وغى باتت قِفاري الساكنة و البليدة، وأنا فيها المغوار الذي رفع الرايات وتمرّد على الخنوع والخوف والرعب والسجان وحتى على هذا الجدار، و .....

- يا ولد، أين أنت..؟!

أبي يناديني لأقضي بعض حوائجه أو أبتاع له السجائر ربما، دبّ الذعر في سكون روحي، وشتّت صوته سكينتي فهببتُ عن الثقب كمن لذغته أفعى أو كوته جمرة متقدة، إذ صوت أبي في ذاكرتي هو الرعب الكبير.

- أين أنت يا زفت..؟!

عدت كما أتيت متسللاً حتى لا أفزع هيفائي في ظهورها تحت شمس آذار، وحتى لا أكشف خطيئتي هذه. على عجل قضيت حوائج أبي ووقفت أمامه مطأطأ الرأس أرمقه بطرف عيني رعباً وهو يتأملني من رأسي حتى أخمص قدمي احتقاراً. حدّق بي وأطال صمته كثيراً، بثّ الخوف في نفسي وتساءلتُ بحيرة (هل شعر بأني أحمل بريق السعادة في عيني..؟، أو لاحظ بأن بركاني على وشك أن ينفجر..؟)، كاد صمته أن يجبرني على البوح معترفاً بثقبي وهيفائي والمرج الفسيح خلف جداره الأحمق هذا، وقبل أن أفعل طردني بإذلال اعتدته منذ أن بات لي أبا وبتُّ أنا الولد الذليل والخانع دوماً، فوليته ظهري وعدتُ متسللاً بذات الحذر المضطرب لألصق عيني على ذلك الثقب الصغير في ذاك الجدار.

مازالتْ مسترخية كظبية في واحة وارفة الظلال، تعبث بشعرها الغجري الطويل وتخلل أصابعها بين خصلاته الكستنائية وترنو للبعيد، حيث تلتقي السماء الزرقاء الصافية مع الأفق الأخضر الشاسع. أي حياة هي تلك التي بقربها وأنا الذي اعتدت حياة الذل والهوان والسجن والاستغلال..؟، أي

ملائكة تختبأ خلف إشراقتها وبهائها وحسنها..؟، جرني حماس أفكاري وأحلامي بعيداً، الثقب الصغير هذا أخبرني عن حياة أخرى يحجبني عنها أبي وجداره هذا، وددت لو أصبحتُ نفخة دخان لأهرب من الثقب بعيدا حيثما أشاء، و وددت لو ملكت الجرأة لأكسر الخوف والصمت والقيد وأحطم الجدار وأمتزج بالهيفاء وأشتم عبقها حتى الثمالة، هل آذار سيمنحني القوة لو حاولت ..؟، أغمضت عيني وسلمت كياني إلى حلمي الأعز بأن أملك قوة تذيب هذا الجدار وكل أسوار الخوف في أعماقي، عقود مرّت عليَّ وأنا أترنح من هول خوفي وذلي والهيفاء يفصلني عنها جدار أصم وأب ظالم. شعرت بأن لي قوة ألف بغل قادرة على تحطيم قيدي هذا، وتسلل خوف صغير في باطني من ألا أفعل فأبقى كسيراً وذليلاً . تلذذت بحلمي وقوتي وحياتي لو تحررت، سافرت عالياً نحو النجوم حتى طاولت عنان السماء الزرقاء، نشوة عشتها للحظات كما عشتها كثيراً قبل هذا وقد حلّقتْ بي في أعالٍ فسيحة، وعند ذروتها شعرتُ بيد ثقيلة تطبق على كتفي بعنفٍ، فهبطتُ فَزِعاً وقد تلاشى حلمي كفقاعة من الصابون في رياح عاتية هوجاء. إنها أمي، كانتْ تقف خلفي ومن عينيها تتطاير نظرات شك وشر وصامتة هي بصمت لا يوحي بالخير أبداً، فأدركت بأن مصيبة قد اقتربت مني، وبأن حياتي اقتربتْ من المحك، وهي على وشك الانفجار. صدق ظني بآذار وعذوبته إذاً، وحياتي قد أقبلتْ به على منعطف كبير. جلستْ أمي القرفصاء بعد أن أبعدتني بخشونة وصمت، وفوق ذلك الثقب ألصقتْ عينها بحذر المتردد والمتشكك.

- يا ابن الكلب.

سرّي الصغير قد انكشف، وثقبي العزيز في ذاك الجدار الذي واضبت على حفره ليال متعاقبة قد بات يتربص بي،

وذاكرتي نشطت فجأة واستعادت بلحظة الخوف هذه كل بطش أبي وظلمه وجداره وسوء عقابي حتى إن عطستُ العطسة، استعدت بلمحة عين كل كبريائي المفقود وكرامتي المهانة وقوت يومي المسلوب، لم أكن إلا كحمار في نظر أبي، والآن ماذا سيفعل حيال ثقبي هذا الذي خرق جداره العتيد وكسر ثوابته واخترق محرماته وهو الذي صبغ دنياي بلون رمادي واحد منذ أن كان أبي وربّ حياتي..؟، لحظات كالجمر تكويني مرّتْ علي وأمي تكيل لي السباب والتقريع والصفعة إثر الأخرى على وجهي ورأسي، تثائب الوحش النائم في عمق نفسي واستيقظ، كسر القيد وصرخ من كهف روحي العميق (هو الموت، ولا مذلّتُكم بعد اليوم)، فنهضتُ كعملاق وانتصبت واقفاً، لأول مرة أعرف بأن لي قامة أطول من قامة أمي بعد أن أمضيت عمري مطأطأ الرأس لها، أدرت ظهري، وأطلقت العنان لقدمي لتركض في المرج الترابي أمامي غير آبه بأشواكه وحجارته الحادة، لم يكن في رأسي إلا فكرة النجاة بعد أن حدّق الموت بي وافتُضِحَ سرّي الصغير ، ولم أعد أسمع إلا صوت الوحش الناهض بداخلي يصرخ بقوة (هو الموت، ولا مذلّتُكم بعد اليوم).

ركضتُ بسرعة وكلي إصرار على أن لا أنال من العقاب شيئاً كما نلتُ منه طوال حياتي الماضية، سأتحدى أبي وأمي وجدارهما، وسأخرج من ثقبي الصغير هذا نحو المرج والهيفاء، فازداد عزمي وتلاشى خوفي وقد أصبحت أمام الموت وجهاً إلى وجه، ناورت وتحايلت وأنّي توجهت كان الجدار يقف في وجهي عاليا، إلا أني أصبحتُ أراه وكأنه هشٌ كورق التوت، وربما بلمسة مني قد يسقط ويصبح ركاماً. ركضت نحوه وحاولت تسلقه كالقط الهارب من مطارده، وأمي كانتْ خلفي تنهال علي بما استطاعت يداها أن تلتقط من حجارة وأحذية وزجاج مكسور.

صوت أبي يرتفع إذ هو يقترب وقد نهض من مرقده واتجه نحونا، عَجِزْتُ عن الجدار وتسلقه لأهرب بعيداً عن الموت والذل، فلن أُذَلَ بعد اليوم، هكذا قررت متمرداً وليكن ما يكون بعدها، تذكرتُ ثقبي في ذلك الجدار، وشعرت بخفة في روحي وقد تحررت من قيد خوفها وخنوعها أخيراً، فخيل إلي بأنها قادرة على النفاذ بجسدي من ثقب الجدار هذا نحو الهيفاء خلفه، ابتعدت عن الجدار مرّة أخرى وركضت نحوه بكل قوتي، خلال الثواني القليلة التي مرّت حتى وصلته شاهدتُ من جديد حلمي العزيز، يدي تمسك يد الهيفاء فوق المرج الأخضر الفسيح خلف هذا الجدار، بسرعة اقتربتُ منه وارتطمت بجسدي الهزيل به حتى سمعتُ صوت تكسّر عظامي، نهضت قبل أن تصل الأيادي إليّ وركضت ثانية نحو الجدار وضربت به رأسي بقوة أفقدتني قدرتي على النهوض، فانهرتُ أمامه بقايا حطام آدمي، فتحت عينيّ فكانت أمي تهمس في أذن أبي وتشير نحو الثقب في ذاك الجدار، ألصق أبي عينه عليه ونظر من خلاله، أدام النظر ومن ثم نظر نحوي، قرأتُ دهشة في ملامح وجهه وهو يقترب مني ببطيء، وشاهدتُ أمي من خلفه تبتسم ابتسامة التشفي، أغمضتُ عيني وسلمتُ أمري للقدر، يبدو إن عقابي هذه المرّة سيكون مميتاً، فالذنب كبير والمعصية لا تغتفر في عرف والدي، فهذا جدار محرّم لمسه في بيتنا، وثقبي له يستوجب الموت والذل والهوان كما يقول والدي.

استجمعت قواي المتبقية، وابتسمت ابتسامة المنكسر، فتحت فمي، وبما بقي لي من عزم صرخت بصوت عالي ولأول مرّة في حضور أبي وأمي:

- هو الموت، ولا مذلّتُكم بعد اليوم.

هدية عيد الميلاد

بلغتْ اليوم الثالثة عشر عاماً من عمرها، في أعماقها همسات مرحة تقول لها:

- أنت اليوم شابة نضرة كأزهار الربيع الفتية.

نظرت نحو نفسها في المرآة، ما زال وجهها يحمل شحوبه الحفيف، وجسدها يفتقد ذلك الاكتناز الذي تراه على فتيات أكبر منها، ولم يأخذ صدرها طريقه إلى الأعلى بعد، لكن شيئاً جميلاً في ثنايا روحها بدأ يتحرك ويداعب قلبها الصغير، فيطير منها فرحاً ونشوة. تشعر اليوم وكأنها ولِدَتْ من جديد، تتّحسّس أنوثتها بحذر، فتشعر بها أكثر من كل الأيام السابقة.

سألت نفسها :

- هل أصبحتُ شابة حقاً..؟، أي شيء هذا..؟.

لم تنتظر لتجيب نفسها أو يُهمَس الجواب بداخلها، بل ركضت نحو أمها فرحة.

- أمي اليوم عيد ميلادي.

اصطنعت الأم دهشة وكذلك فرحة، انحنت وقبلتها على خدها وجاملتها بكلمات عادية، سألتْ أمها بحماس:

- هل جلبتِ لي هدية..؟، فاليوم أصبحتُ شابة .

تمتمات مبهمة كان الجواب، واعدة ربما أو معتذرة، مسحتْ الأم على رأس ابنتها مبتسمة وقالت:

- فيما بعد، اذهبي الآن وحضري نفسك.

- لكن يا أمي.

- هيّا حتّى لا تتأخري على المدرسة كالأطفال، ألم تصبحي اليوم شابة..؟.

تذكّرتْ والدها، وتذكرته يوم قال لها:

- الإنسان في سن الثالثة عشرة يودّع الطفولة ويصبح شاباً.

سألته بفضولها آنذاك:

- ولماذا في الثالثة عشر..؟.

فمطّ شفتيه وهزّ رأسه نافياً علمه بذلك وقال:

- هكذا يقولون.

مع بزوغه في خيالها وجدتْ نفسها أمامه تخبره بفرح بأن اليوم هو عيد ميلادها، وتسأله عن الهدية. لم تحرك به شيئاً، وبقيت بحيرات ذاته ساكنة لا تتأثر بكل العواصف التي هبّتْ فوقها، حرّك شفتيه قائلاً:

-كل عام وأنت بخير.

وبعد قبلة وكلمات مجاملة أيضاً تناسى الموضوع وسألها بهيبة الآباء:

- هل حضّرت دروسك جيداً..؟.

أجابته بحدة:

- والهدية..؟.

وكان الجواب جاهزاً، فقال بسخرية:

- إذا نجحتِ.

كادتْ أن تقول له (لكني كل عام أنجح) لكن إحساسها الأنثوي الوليد ردعها، وهمس لها بأنها لن تحرّك به شيئاً كالعادة، وستبقى البحيرات بداخله هادئة هدوء الموت رغم كل العواصف المتحرشة بها، فآثرت الصمت كأول مأثرة تتلقاها من نفس في طور التغير والتشكل، وستشحن فيما بعد بطاقات هائلة من والصمت والكبرياء.

في المدرسة..

همست لصديقة لها:

- اليوم عيد ميلادي.

أجابت الأخرى بتعجرف سيدة كبيرة:

- أنا مضى عيد ميلادي منذ شهور.

سألتها بفضول :

- و هل جلبوا لك هدية..؟.

- أخي، جلب لي حذاء، وأنت..؟.

زلزل السؤال فؤادها، وقالت بلهجة المتأكد:

- اليوم مساء.

بقيتْ طوال ساعاتها الأولى تحلم بهدية عيد الميلاد، وتحلم عند عودتها إلى البيت أن ترى هدية جلبها لها والديها. قبل نهاية يوم المدرسة اقترب منها زميل لها في الصف بحذر شديد وارتباك بدا واضحاً في مشيه وكلامه عندما حيّاها

بحركة من رأسه وتمتمات من شفتيه. قال لها بحياء شديد متعثراً بكلماته:

-كل .. عام وأنت .. بخير.

سألته بعينيها دهشة، فأجاب:

- أليس اليوم هو عيد ميلادك ..؟.

بصوت مندهش قالتْ:

- نعم، وما أدراك أنت..؟.

- أنت ذكرتي مرّة أمامي تاريخه، تفضلي.

أعطاها بطاقة صغيرة ، فيها صورة طفلة تحمل بيدها وردة بيضاء، فتحتها وقرأتْ بداخلها جملة واحدة فقط (مع أمنياتي لك بحياة سعيدة)، ووقّع أسفل العبارة بخط بدا الاضطراب به واضحاً وجلياً، نظرت نحوه، الحياء والدهشة يتصارعان على تضاريس وجهها الدقيق، وما زال هو يقاوم ارتباكه الواضح بحركات يديه ونظراته الحائرة بينها وبين البطاقة. مرّ وقت حتى انهارتْ الحواجز بينهما، فحدقا بعيون بعضهما البعض بكثير من الود والترقب والحذر، النظرات تتخبّط بسيل جارف من التساؤلات الكثيفة، وتحاول فتح طريق لها نحو الإجابات المبهمة، لأول مرّة تعرف لون عينيه، وشعرتْ بأنها تتلمس ذلك الدفء الذي ينبع من أعماقها، فتجد نفسها تعوم فوق أمواج بنية بفرح ونشوة. لم تجد غير الابتسام فابتسمتْ، ولم يجد هو غير الابتسام ففعل، تدفقت بداخلها أنهار من الحرارة كادت أن تنبثق من خديها المتوردين، وشيء لذيذ سار مع دمها في أنحاء جسدها الناهض، فصرخت له كل خلية فرحاً ونشوة، تراءى ثغر الحياة باسماً وقد أهدتها شعوراً لم تألفه من قبل ولا تدري إلى أين سيغدو بها في قادم

الأيام، ارتبكتْ عيناها من الخجل بعد تحديق طفيف بعينيه، وأصاب أعصابها ارتخاء كاد أن يوقع بها أرضاً، ولم تستطع الاستمرار في النظر نحوه فأطرقتْ بحياء شديد. تمالكت نفسها، وقبضت على البطاقة بإحكام، كثير من الفرح لم تألفه من قبل دار في رأسها، والموقف أصبح ثقيلاً على روحها الناهضة فقالتْ بصوت أنثوي رقيق:

- شكراً، شكراً لك.

في البيت..

بقيت طوال اليوم وحدها. لم تكلم أحداً، وأوهمتْ الجميع بأنها تدرس. عيناها تجريان فوق السطور السوداء فلا ترى فيها غير اللون البني الجذاب يسطع منه بريق ساحر، وعلى إحدى صفحات الكتاب كانت تعود بين الحين والآخر وتقرأ عبارة البطاقة مراراً، وتحدّق في التوقيع المضطرب ملياً، فيجتاح حواسها ذاك الشعور اللذيذ الذي شعرته اليوم في المدرسة، لم تحاول تفسير ه أو السؤال عنه، وبقي في داخلها إحساس مبهم تحتضنه داخل ثنايا نفسها بكثير من الود ، وتخبئه في أعماقها وكأنه قطعة منها، وتريده أن يبقى هناك دائماً وأبداً.

حلمت بالغد وبالمدرسة وبأصدقائها و.....بكل شيء فيها، وغَفَتْ فوق كتابها دون أن تسأل والديها حتى عن هدية عيد ميلادها.

خابزة رغيف الجياع

فتحتْ عَينينِ ناعستين وتفحصتْ ما حولها، الفجر يطرق أبواب السماء ويزحف بلونه الفضي الشاحب في عتمة الليل المنجلي. استوت جالسة في فراشها والنعاس يُثقل جفنيها. لملمت شعرها وخبأته تحت شالها الأزرق الصوفي المهترأ الذي حاكته لها أمها وأهدته لها يوم زفافها، مسحت وجهها بباطن كفيها فتبدّد النعاس وأصبحت يقظة، تثاءبت، بسملت وحولقت ومن ثم تمتمت أذكارها وتعاويذها كما تفعل كل صباح. كان نايف بجانبها يغط بنومه العميق، ويعلو شخيره كصوت المطحنة.

كل شيء ساكنا سكون الفجر هذا، ولم تسمع سوى صياح ديك ونباح كلب أتيا من البعيد، البرد شديد والفراش الدافئ يناديها أُنْ عودي إلى النوم لكنها نهضت، (ما زلتِ صبية، الله يعافيكِ) قالت لها جارتها يوم أمس، فابتسمت بحياء وردّت عليها بتنهيدة تقول فيها (أي صِبا هذا..؟، ليته يعود يوما، الحمد لله على كل حال). فتحت الباب الخشبي فاختلط صريره بغناء صرصار ليل قريب، أطلّت برأسها وتنفست من الفجر نسمات باردة ملأت روحها نشاطاً وبثّت التفاؤل في نفسها. مشت حافية القدمين فوق الحجارة الملساء المرصوفة بعناية أمام البيت وكانت باردة كالثلج، اقتربت من حوض حجري بجانب صنبور الماء وغسلتْ وجهها، فسرَتْ قشعريرة باردة في جسدها. (يا رب يا كريم، يا رحمن يا رحيم) قالت وهي تجفف الماء عن وجهها وتجول بنظرها على أشجار حديقتها العزيزة. انتعلت حذاءها ومشت نحو بيت المؤونة وهي تحكم ثوبها الصوفي فوق كتفيها اتقاء للبرد. غرفة

المؤونة حجرة صغيرة سقفها منخفض ومن ألواح خشبية وتعلوها طبقة سميكة من التراب، والجدارن حجرية بازلتية مكسوة بالطين من الداخل، وهناك في جهتها الشرقية باب خشبي متهالك. فتحت الباب ودلفت فسرى الدفيء في جسدها وشعرت بارتياح لذيذ ورغبة خاطفة في العودة إلى النوم، فأر لاذ بالفرار من خطا قدميها، وعصافير الصباح تغرّد في الحديقة بكسل وهدوء. أزاحت الغطاء عن وعاء نحاسي كبير كان على الأرض أمامها، مدّت يدها وتحسّست وجه العجين، التقطت كتلة بحجم حّبة الجوز وقلّبتها بين أصابعها، (لقد اختمر، على بركة الله) تمتمت وهي تضيء الفانوس القديم، فانداح ضوءه الأصفر الشاحب يتراقص في سواد العتمة ولملمت شعرها من جديد وأحكمت شالها الأزرق عليه. وزّعت أدواتها حولها، وهيأت جلستها، طبليّة الخشب وبعض الطحين وأواني كبيرة مسطّحة عليها قطع من قماش أبيض اللون. بسملت ودعت بالبركة، (ادعي لتحل البركة على العجين ولتباركي خبزك) كما كانت تقول لها أمها العزيزة.

بدأت تصنع كرات من عجين بحجم البرتقالة بخفة وخبرة متقنة، رائحة الخميرة تعبق بأنفها وتستحضر من دفين ذاكرتها صورة والدتها، (كم أشتاقك يا أمي) قالت لنفسها وقد عادت بذاكرتها إلى ماضي قديم وجميل مفعم بالبساطة والمحبة. وعلى وقع تزاحم الصور العتيقة في مخيلتها ازدادت الكرات حولها ونفذ العجين، فنهضت وخرجت من غرفة المؤونة. كان الفجر قد اكتمل وأسبل على المكان ضوءً كسولاً وكثيراً من السكينة العذبة، الطيور تغرّد في جوقة صباحية بعشوائية صاخبة، فيصل لحنها إلى شغاف القلب المترنّح من سكرة الفجر الربيعي الخلاّب فينتشي طرباً.

شجيرات الحديقة تميد مع النسمات الربيعية الباردة، وحفيف أوراقها يعطي صوتا عذباً أقرب هو إلى الهمس، هرّة البيت تموء وتتمسّح بقدميها، وصياح الديكة يتعالى من كل مكان في الأرجاء القريبة. تناهى إلى سمعها أصوات الجيران، القرية نهضت إذاً من نومها، وبدأت بيوم جديد.

عادت إلى غرفة المؤونة وأوقدت الموقد هناك، بضع حطبات وكومة قش صغيرة تبعها عودٌ مشتعل من الثقاب، نفخت عليها عدة مرّات فاشتعلت وتصاعد الدخان الأبيض متراقصاً متهادياً حتى السقف الخشبي. رمَتْ في الموقد الحطب والقشّ ثانية وخرجت مسرعة قبل أن تلفها غيمة من الدخان الكثيف تُدْمِعُ عَينها وتُسْعِلُ صدرها. كان نايف يقف في الخارج بوجه يقطع الرزق كما يقول عنه جاره أبو معذى. (اضحك يا رجل كي لا تقطع رزق العباد بوجهك العابس هذا) وكم ضحكت على هذه الدعابة المحقة. بادرته بالقول باسمة :

- صباح الخير.

فنظر نحوها بعينين حَمراوين ذابلتين وقال:

- أي خير ..؟، قولي صباح الزفت، كل ما تحدثناه بالأمس لم تستوعبيه ولم يدخل في رأسك منه أي حرف..؟.

لم تجب، وتابعت نقل أواني كرات العجين إلى قرب الموقد الذي كانتْ الجمرات في باطنه تتقد بلونها القرمزي الوهّاج. لحق بها نايف وهو يصيح :

- الظروف صعبة، والبلد في أزمة خانقة، ومستقبلها كالجحيم، ألا تدركين هذا..؟.

جلست بجانب الموقد وقد هيأت ذاتها للخَبْزِ، تفحّصت أشياءها مرتين، ورمت بعض القش مع جذع شَجرة صغير يابس في الموقد ونايف يقول بتشنج خلفها :

- والناس تمر بحاجة خانقة، ولا يوجد عاقل في هذه الظروف يفرّط برزقه وطعامه.

لمست برؤوس أصابعها التنور المعدني الضخم فوق الموقد، (مسّيه مسّاً خفيفا بأصابعك لتعرفي حرارته إن كانت مناسبة لبدء الخَبْزِ أم لا) يأتيها صوت أمها من ثنايا ماضيها القديم. عادت وأطعمت النار بعض الحطب والقش، ومسحت التنور المعدني الساخن بقطعة قماش مبلولة بالزيت فَعَلَتْ الأبخرة وتضوّعت في المكان رائحة الزيتون المحروق ونايف يقول:

- ما نملكه من طحين لا يكفي حتى الموسم القادم، ولم تمطر جيداً منذ العامين، والنازحون ملأوا الأرض حول القرية بخيامهم وأعاقوا حراثتها وزراعتها، ألا تفهمين ما أقول..؟.

أيضاً لم تجب، لملمت شعرها عندما نايف سدّ باب الحجرة بجثته الضخمة وحجب عنها ضوء الصباح ونسماته الباردة المنعشة. تناولت كرة العجين الأولى بيدها وبالأخرى نثرت بعض الطحين على الطبليّة، ونايف محتد صوته يعلو وهو يقول:

- من فترة أكلوا موسم التفاح عند أبو عمّار، ولم تكفهم كل الخراف التي ذبحها لهم المختار من قطيعه حتى الآن، ويطلبون المزيد.

أنصتت، ومن ثم ابتسمت، وتابعت ضرب كرة العجين على الطبليّة بشكل دائري وبإيقاع رتيب أوحى لسامعه بهدوء أعماقها وسكينتها، فاتسعت قطعة العجين تحت يديها وأصبحت رقيقة واتخذت شكل رغيف الخبز، نثرت بعض الطحين عليها وتابعت العزف بيديها فوق العجين وعلى الطبليّة بإيقاع خَبِرَتْهُ لأكثر من نصف قرن مضى، ثم رفعت رغيف العجين بين راحتيها وراقَصته في الهواء ملوّحة به بحركات متناغمة ما بين كفيها وعينيها، فما كان رغيفا صغيراً إذ هو بحجم التنور اتساعاً، ورقيقاً كورق الشجر ويكاد أن يكون شفافاً، ونايف يحاول إقناعها وقد لاحت في صوته نبرة الرجاء:

- ونحن فقراء أيضاً ومساكين، ومحتاجين، فكيف لنا أن نُقاسِم خبز يومنا مع غريب نزح من بعيد وسكن أرضنا..؟.

بحركة متقنة وضعت رغيف العجين فوق التنور الملتهب، فغطاه تماماً، وظهرت فقاقيع الهواء في الرغيف واتشح بلون ذهبي وفاحت منه رائحة الخبز الطازج. بدت راضية وقد تورّد وجهها من حرارة الموقد واكتسب لوناً ورديا غطّى تجاعيد السنين النافرة فيه. شربت الماء من إبريق الفخّار بجانبها حتى ارتوت، حمدت وشكرت وتابعت عزفها على العجين فوق الطبليّة كرة إثر أخرى. نايف بدا عليه الخمول اليأس وقد أنهكه الصراخ لإقناعها، فجلس القرفصاء أمامها يأكل لقيمات من رغيف خبز ساخن تناوله من على التنور، ويحدق في النار المتهادية أسفله. (حماقة الرجل قاوميها بالصمت يا ابنتي، لا علاج لها إلا هذا) ترحمّت على أمها وشعرت بغصة في فؤادها لعمق هذه الذكرى. مدّت قضيب الحديد في عمق النار وحركته، فانتفض الجمر الراكد و تطايرت شراراته الحمراء وكأنها مذنبات غزت أعالي السماء، فأبعدت وجهها لكي لا تدركه أي واحدة منها.

مضى الوقت وأرغفة الخبز الساخن تتراكم فوق بعضها البعض وكرات العجين تتناقص، بان على صفحة وجهها التعب وقد أصبح لونه أحمر ولمعت فيه حبات العرق المنهمر من جبينها. الشمس أطلّت بخجل من عند الأفق وغمرت الحديقة وبيت المؤونة بنورها الصباحي الذهبي الخلاّب، نايف كان عند الباب متكئاً وقد مدّد جسده تحت نور الشمس، بدا عليه الهدوء والشرود وهو يمجّ من لفافة التبغ البلدي التي انهمك بلفها قبل قليل، وبين الفينة والأخرى كان يتمتم كمن يحاكي ذاته :

- موت ودمار وتشرد وضَياع، حرب غبية دائرة هنا فإلى أين يا بلد تذهبين..؟، آه يا وطن.

أنصتت له وابتسمت، وأتاها صوت أمها من الماضي السحيق ندياً وعذباً وهي تقول لها (طيب القلب يا ابنتي زوجك هذا، ليس بأفهم من طفل صغير بكثير، فلا تحملي عليه إن غضب منك)، انقبض قلبها بحرقة الفراق والألم، وكادت أن تفلت دمعة متمردة من عينها إذ لاح في خاطرها الوطن جريحاً، وتراءى لها من تشرد ومن نزح ومن بقي والكل يلعق الجراح المثخنة، لكنها حبست الدمع وقالت بحزم وبصوت متّقد:

- نايف، هيا حضّر نفسك فقد كدتُ أن أنتهي.

وقبل أن تعلو الشمس في كبد السماء ويشتد وهجها كان نايف وحماره من خلفه يسيران نحو مخيم النازحين القريب من القرية وأكياس الخبز مكدّسة فوق ظهر الحمار الذي كان يمشي بسكينته البلهاء ويمضغ بفمه الكبير بعضاً من العشب الأخضر الندي. وعندما اجتازا الممر الضيق بين القرية والتلّة الشرقية ظهر السهل الواسع بلونه البني المتداخل فيه بساط

الربيع الأخضر الجميل، وقد تهادى فوق السهل شريط من ندى الصباح الفضي، واكتست الحجارة والنباتات بقطرات ماء صافية كزلال العين، وكان في الجو برودة منعشة. انشغل نايف بلفافة تبغه حتى تناهتْ إلى أذنيه ضجة المخيم وأصوات الأطفال فيه، وشاهد من بعيد بعضَ الرجال وقد أتوا لمساعدته مرحبين مهللين له، ابتسم وطَفَتْ البشاشة على وجهه، وغمرت روحه فرحة تراقص على وقعها قلبه في جوفه، فنهر حماره ليحث الخطا أكثر وأكثر.

بعض من ذاكرتي

عدتُ اليوم من المدرسة باكراً على غير عادتي. سيطرت كآبة مرّة على روحي، وقلبي كان يعبث به القلق والتوجس. حاولت رَسْمَ ابتسامة على وجهي فكانت تأتي باهتة وكئيبة، وشعوري المخيف بأن اليوم سوف يحدث شيء ما في بيتنا قد سيطر على كامل الوعي عندي وكاد أن يفقدني الاتزان والهدوء، فحثثت الخُطا لأعرف ما جرى هناك وأنا أحاول إقناع نفسي بأن أقبل الحقيقة على حالها وأياً كانت بشاعتها بتعقل وحلم.

وقفت عند باب البيت وأرهفت السمع، انقبض قلبي خوفاً من هذا الصمت المريع، فاليوم هو العطلة الأسبوعية لوالدي وجلوسه في البيت أربكني إرباكاً لا حدّ له منذ الصباح لأني أكره أن يتواجد في البيت لأوقات طويلة تفادياً لأي صِدام وخلاف مع أمي، إذ تثيره أبسط الأشياء، ويدقق في أصغر الملاحظات، فيثور غضبه في وجهها وتثور هي أيضاً ويبدأ الصراع بينهما من جديد والذي كنت أدفع ثمن طرده من البيت دموعي وفرحتي. دخلت البيت كمن يدخل سجناً، وناديت في صمتِ أعماقي:

- سليم، أين أنت الآن..؟.

شَدَدْتُ من أزري وأغلقت الباب خلفي، تمنيت لو إني بقيت خارج البيت ولم آت إليه، مرّت لحظات قلق عجز لساني فيها عن النداء على أحد سوى إني كنت أنادي سليم في نفسي الموحشة. شعرت بحركة ما في المطبخ، مشيت نحوه ببطئ وكانت الثواني وكأنها دهر حتى وصلت بابه، شاهدت أمي

هناك تعد طعام الغداء، غمرني إحساس جميل كالذي نشعره بعد الاستيقاظ من حلم مزعج جداً. شعرت بدوار خفيف وكدت أن أقع أرضاً لولا إني قد أسندت ظهري إلى الجدار خلفي وتبادلت مع أمي نظرة امتنان ومحبة، وبلا شعور مني وجدت نفسي بين أحضانها تداعب بأصابعها شعري وتتلمس بها وجهي. عادت إليّ روحي وكأني ولدت الآن لتوي، سألتها عن والدي فقالت لي إنه في غرفة الجلوس يقرأ جريدته، اجتاحتني مشاعر مختلطة ومبهمة عبثت بقلبي حتى ضاق بها وكاد من فرط سعادتي أن ينفجر ويملأ الوجود حباً. قبّلتها وذهبت إلى والدي، طفولتي عادت إلي، وآلاف الضحكات تتوالد بداخلي وأنا أركض بفرح نحو أبي. تحدّثت معه وكأنه غاب عني سنين طويلة، سألني شأني، فأجبته بصوت متهدج وعاتب :

- مرّ زمن طويل لم تسألني فيها هكذا.

أبعد عينيه عني ونظر في جريدته، كانتْ كلماتي كسهم اخترق سكون نفسه، نظر نحوي بعد برهة وابتسم ببرود، وعاد يسألني عن مدرستي. أجبته وحاولت أن أخبره بما يشغلُ بالي من خلافه المتكرر مع أمي، لكن العزيمة خانتني وجاءت محاولاتي فاشلة. لاحظ صمتي وحَيرتي فسألني:

- ما بكِ..؟.

فلم أجب، نظرت نحوه وقاومت دمعتي المجنونة، حبستها حتى لا أفسد صفاءه النادر هذا، ذهبتُ إلى غرفتي، بدّلت ثيابي، وأمسكت ريشة ألواني، ورحت أداعب لوحتي من خلف غشاوة دموع على عيني.

في المساء أتى سليم مع أهله لزيارتنا. فتحت الباب لهم، عانقتني عمتي وبناتها، ورتّبت زوجها على ظهري بمودة

ومحبة. صافحت سليم، أشرقت ابتسامته الهادئة في صفحة وجهه فكانت كبلسم شفا جرحي وأعاد إلى روحي تفاؤلها. ضغط على يدي وكأنه يبوح لي لواعج صدره، وهمس في إذني بكليمات قليلة كانت لي ذلك اليوم نفخة من سعادة أيقظت روحي من غفوتها. شعرتُ بفرح شديد وسعادة طاغية أنارت قِفار ذاتي المظلمة، فهذه ربما هي المرّة الأولى التي تأتي فيها عمتي وعائلتها لزيارتنا دون أن يكون هناك أي خلاف بين والديّ، كثيراً ما شهدوا الصياح والسباب وعراك الألسن بينهما، وطالما قام أبي وشتم أمي بحضورهم وأفرغ غضبه في وجهها. في كل مرة كنتُ أشعر بأني أتلاشى ببطيء حتى أكاد أن أختفي، وكم تمنيت أن أختفي حقاً عن الأنظار وأذوب بين ذرات الهواء، حيث كان الخجل يربكني وأنا أترجى بصوت كسير مخنوق العبرات ومن ثم أهرب نحو سليم، فتلتقي العيون بعناق طويل وحميم، تفيض نظراته في نفسي حباً وحزناً، وتعيد لها بعضاً من الهدوء والسكينة، وكانت كل نظرة أرشفها من عينيه تكتب بداخلي سطر حب جديد في قصة لم تبدأ ولم تنتهي. وكان ينفذ بنظراته حتى ظلاماتي العميقة، فتتحول السهول السوداء هناك إلى مروج خضراء زاهية. في بعض الأحيان كان يهرب بي من أجواء السمّ تلك، فنذهب إلى مكان قصي، أو يجلس بجانبي يحدثني بما يبعد ذهني عن ما يدور حولي، كان يحثني على أن أكون صلبة في وجه المحنة، وكان يجتاحني بسيل كلمات ساحرة تربك روحي وتلاعب قلبي الفتي، وعندما كان يمسُّ يدي مساً فإني كنت أ غرق بدفئه وأعود بجانبه طفلة صغيرة تطير فرحاً وهي تتعلم أبجدية الحب على يديه. كان سليم يحوّل المستحيل أمامي وكأنه حقيقة، فأراه وأشعره يتراقص في ثنايا ذاتي، وكان يلازمني حين تتلبد غيمات الأسى في سمائي بين الحين

والآخر حتى تعود البسمة تتوج ثغري من جديد. قال لي يوماً :

- لا يوجد حزن في حياتي إلا حزنكِ أنتِ.

فكرت بكلماته كثيراً، ورددتها كثيراً أيضاً، عاهدته بيني وبين ذاتي بأن أكون فرحته لو جمعتنا الأيام معاً يوماً ما، هو الوحيد الذي يفهمني وفني، وهو من يحرض ريشتي على الإبداع، كان يحدثني عن كل شيء وأنا أرسم، وكان يحلّق بي في عولم تجاربه، وكان يسهب بحديثي عن أحلامه التي كنتُ أنا فيها الشمس التي تدور حولها كل أفلاكه وتنتهي بها كل مساراته، وأنا أكاد من فرط سعادتي أن أبوح له بما كشفته العيون منذ زمن بأني أيضاً أراه الشمس التي من ضياءها أستمد نسغ حياتي. كانت تلك الأمسية سعيدة جداً، ساد جو مرح وألفة بين العائلتين، تقارب أبي وأمي كثيراً، وتحدّث أبي عن بعض هفواتها مازحاً وضاحكاً، وأمي بادلته اللطف والمودة بل والمحبة أيضاً، ما أذهلني وأفرحني. كنت مكاني قبالة سليم أكاد أن أحلّق عالياً من فرط فرحتي، ووددت لو أستطيع أن أصرخ ملء صوتي ليعرف الجميع بأني سعيدة وحزينة وعاشقة. التقتْ عينانا مرات كثيرة، ونطقت بآلاف الكلمات العصية على اللسان، أحقاً بأن للعيون لغة بليغة كما يقال..؟، ليتها تتكلم لكانت نطقتْ شهداً وعزفتْ لحناً.

تبادلنا الابتسام وتحادثنا بأعذب الكلام الصامت، حرّض الأمل والسعادة في نفسي، وشعرت بأني اليوم إنسانة جديدة لا ماضي حزين لها، وكم تمنيت في تلك الأمسية أن أركض وأرتمي على صدره وأبكي فرحاً وحزناً. أومأتُ له فنهضنا معاً لأريه لوحة كنت أرسم فيها، هناك وبغفلة عن عين الرقيب والحسيب غمرني بأسئلته عن شؤوني ودراستي وظروف نفسي القلقة، شكوت له قلقي منذ الصباح، وكشفت له

فرحتي الآن، وبثثت أمامه همومي وخوفي من القادم، لمستُ صدقه نحوي، وكانت تساؤلاته تحيطني من كل صوب وتشعرني بأمان أفتقده وأتوق إليه ولا أجده إلا بين يديه وحده.

كان يمد يده لي في محنتي، وكان يطل بإشراقته وسط غيومي الملبّدة بالهم والحزن، وكان وحده القادر على فهمي دون كل من يحيط بي. في يوم قال لي:

- أفهمكِ من عينيكِ.

لم يفصح أكثر كعادته الصامتة، وكان ما قاله في جملة واحدة قد ثبّتّه في نفسي أكثر وأكثر، وبات أكثر من صديق بالنسبة لي، بل إنه من أحب وأريد.

بعد ذهاب عمتي وعائلتها نشأ خلاف بين والديّ انتهى بمغادرة أبي البيت. لم أستطع النوم ولا الدراسة ولا حتى الرسم في تلك الليلة، بل جلست قرب نافذتي والحسرات تتوالد بداخلي وتريني الواقع كالح السواد، حتى الدمع تجمّد ورفض غسل حزني. خلاف أبي وأمي هذا منذ أن وعيت دنياي هذه، دائما أراهما في عراك وخصام لا أجد له سبباً إلا الكره المتبادل بينهما، فتصبح أتفه الأسباب سبباً كبيراً لإشعال خلاف يتحول إلى حرب مفتوحة تمتد لأيام وربما أسابيع. تمنيتُ لو كان بمقدوري أن أصلح الحال وأن يخلو ذهني من كل شيء إلا من دراستي وفني وسليم.

في تلك الليلة أمام النافذة شعرت بالكره اتجاه والديّ لأول مرة في حياتي، وشعرتُ بحقد عليهما لم تألفه نفسي قبل هذا، وأحسستُ بأني الخيط الواهي الذي يربطهما معاً، وهل الخيوط الواهية ستصمد في وجه أعتى العواصف..؟، تسلّل شعور في داخلي بأن الطلاق سيتم يوماً ما لامحالة، فذاب دمعي المتحجّر، وبكيت بشدة إذ تراءت لي عذابات الأيام القادمة

وقسوتها، تعاظم خوفي من أن أصبح يوماً ما يتيمة فلا أجد سوى دموعي ولوحاتي وسليم ليخفف من ضيقي. آه يا سليم، لو تأخذني وتهرب بي إلى البعيد البعيد، حيث لا حزن ولا قلق ولا خوف، ليتك تفعل لتجعل مني إنسانة أخرى لا تعرف من حياتها إلا الحب والفن فقط، حاجتي لك تزداد مع تعاقب الأيام، ولا أستطيع أن أرى أي حياة لي بدونك، فلولاك لكان القهر قد قضى عليّ منذ زمن، لكن وجودك في حياتي يجعلني صلبة وقادرة على مواجهة هذا البركان الثائر في بيتنا. وسأدرس وأرسم لأحقق طموحي وحلمكَ بأن أكون فنانة ترسم بريشتها أحاسيسها ومشاعرها بألوان زاهية، وأن تحوّل العالم إلى أزهار وأشجار وأطيار، وتقلب الحزن فرحاً والتشاؤم تفاؤل والأسود أبيض، أود أن أحقق حلمك وطموحي يا سليم، هذا وعد من فتاة أحبتك، ورأت أملها وسعادتها بك، ولولا ظروف بيتها وتعاستها لكان لديها الكلام الكثير والكثير الذي يقال لك بوحاً، عن حبها وفنها وحزنها، وعن إنسانة أحبتك بصدق رغم إنها عاشت وستبقى حزينة من ذكرى والديها.

****

الأسبوع الماضي خرجتُ من غرفتي أركض بفرح كالأطفال، جررت أمي من يدها لأريها لوحة كنت قد أنجزتها الآن لتوي، رسمتُ فيها نِسراً كبيراً ينقضّ على أرنب صغير في مرج أخضر يمتد حتى يلقى السماء الصافية عند الأفق البعيد. نظرتْ أمي في اللوحة ملياً، وخَلَتْ صفحة وجهها من أي تعبير واضح، أدهشني تركيزها وهي التي لم تكن قبل هذا تهتم بالفن وكل ألوانه، لكنها أمام هذه اللوحة صمتتْ وشعرتُ أنا بشيء ما داخل نفسها يحثها على الاسترسال في النظر نحو اللوحة والتمعن فيها. سألتها مستفسرة بنظراتي فاستدركتْ،

وأبدتْ إعجابها بها، وعند إلحاحي على ما كانت تفكر به قالت بانكسار :

- لكأنكِ رسمت الواقع، وكأني أرنب والنسر أبوك.

وهمّت بالخروج، ذهبتْ فرحتي مني وتلاشت وأصبحت الدنيا في عيني سوداء كالسخام. لم أتوقع أن تصل أمي بتفكيرها إلى هذا الحد، خلاف والديّ هذا اقتحم حتى لوحاتي العزيزة. بكيتُ بحرقة، ورفضت تناول طعام الغداء رغم كل توسلاتها واعتذارها ومحاولاتها اليائسة لإيهامي بأنها كانت مازحة معي في كلامها هذا وغير جادة، وأبدتْ إعجابها الشديد في لوحتي. سألتها باكية:

- هل تحبين أبي..؟، وإذا كنتِ لا تحبينه لماذا بقيت معه حتى الآن..؟، بل لماذا أنجبتني منه بدون حب ..؟.

لم تجبني، وخرجتْ تمسح دمعها ولم أرها ذلك اليوم. أتى والدي عن المساء، ناداني فلم أجب، سأل أمي عني فقالت له إنها في غرفتها، أتاني وكنتُ جالسة أمام لوحتي جامدة أمامها كتمثال أنظر إليها، تحدّث معي فلم أجبه سوى بنظرات ذليلة، حاول معرفة سبب بكائي فبقيت على صمتي، يأس مني فنظر إلى لوحتي، لا أدري كم مضى من وقت وماذا تحدث فيه عن اللوحة حتى باغتني بسؤاله :

- أخشى أن تكوني قد رسمت هذه اللوحة من واقع بيتنا..؟.

نظرت نحوه مستفسرة وقد استفزني سؤاله، أكمل حديثه بهدوء بارد وهو يشير إلى الأرنب في اللوحة:

- ربما خلافي مع أمك المستمر، أرى نفسي به.

صعقني كلامه، وبدّد الاتزان في عقلي، فأمسكتُ اللوحة ومزقتها ورميتها من النافذة، وبعثرت كل ألواني على الأرض وكل أوراقي، حاول تهدئتي فصرخت بوجهه بضراوة الجريحة وسقطت على الأرض أبكي وجسمي ينتفض قهراً وكمداً، وكان آخر ما أدركته من حولي في ذلك اليوم، ولم أستعد وعي إلا في مشفى كنتُ قد نُقِلْتُ إليه بعد نوبة عصبية حادة انتابتني، وعندما فتحت عيني بعد ساعات عدة كان سليم أول من رأيته بجانبي يبتسم لي بهدوء ممزوج بالقلق والإرهاق، وكانت شفتاه ترسلان نحو ذاتي كلماته الرقيقة همساً، وكانتْ عيناه تصرخان شوقاً بأبلغ الأشعار.

لم أخبر أحداً من أصدقائي ولا أقربائي عن سبب الصدمة إلا سليم الذي طفا التأثر فوق ثنايا وجهه القلق، وبعد صمته المعتاد ربّت على يدي بحنان وابتسم لي ابتسامته الحالمة التي كانت لي كسيل من الكلمات الكثيرة لم يقلها لي لسانه، الشيء الذي أوقد الأمل في قلبي من جديد وأنساني أوجاعي وكأنها لم تكن.

****

كنتُ قد تخرّجت من كلية الفنون الجميلة وغادرت مع أبي دمشق بحكم ظروف عمله، وأمي كانتْ غادرت إلى أخوتها في الريف بعد طلاقها. لم أعد أرى سليم بعد وفاة والده المفاجئ وتنقله من عمل إلى آخر ومن مكان إلى آخر أيضاً، وبَدَتْ وكأن كل السُبل قد تقطّعت بيننا وللأبد. مات كل أمل في نفسي إلا أملي من سليم الذي لازمني رغم قسوة المحن والتجارب، وذَبلت كل الورود في حديقة حياتي الجافة وعشتُ فيها من أجل وردتين فقط: فني وسليم، وحيدة وحزينة كالوردة

وسط صحراء قاحلة، حبي لـه ازداد وحـاجتي لـه كانـت تكبـر يوماً بعد يوم.

****

كان قد انقضت خمس سنوات عندما عدت إلى دمشق، المدينة العزيزة والعَبِقة بروائح أحزاني. أقمتُ فيها معرضاً فنياً كبيراً في إحدى صالات العرض الكبيرة والمشهورة، وعرضت فيه مائة لوحة من أعمالي بيعَ معظمها. وفي صدارة المعرض علّقت لوحتي الأغلى والأعز عندي وهي ذات قياس كبير رسمت فيها نِسْرَينِ ينقضان على أرنب واحد صغير محاطاً بكومة من الحجارة في مرج أخضر يمتد حتى يلقى السماء الصافية عند الأفق البعيد، وأسميت هذه اللوحة (بعضٌ من ذاكرتي) ورفضتُ بيعها رغم الطلب الشديد عليها، مما جعلني أكتب بجانبها (ليست للبيع).

أتى إلي مشرف الصالة يوماً وقال لي:

- هناك رجل في الخارج لم يفصح عن اسمه مصرٌ على أن يقتني لوحة (بعضٌ من ذاكرتي) الكبيرة ورغماً عن صاحبتها، وأخبرني أن أنقل هذا لك حرفياً.

أغرقني سيل الغضب والفضول، وخرجتُ مسرعةً من الغرفة الجانبية إلى صالة العرض لأرى هذا الرجل بنفسي، عندها صرخت بأعلى صوتي فرحاً عندما شاهدتُ أمامي بعد كل هذه السنوات : سليم.

وَصَمَتَ الكلام

مازال مطر كانون الأول يداعب دمشق بهدوء ويغسلها من غبارها لتستقبل مساءً جديداً عندما قالت لي:

- عاد وخلقَ لنا المشاكل من جديد.

نظرتُ نحوها، صدى صوتها يجول في رأسي دون أن أدرك مَنْ تعني. لم أرَ أمامي سواها، أجمل من كل الأيام السابقة، وأرقّ من هذه القطرات المنهمرة.

تابعتْ قولها:

- هذه المرّة الوضع صعب جداً، فسامي جاد بما يقوله.

ما زلتُ أنظر إليها، وأرقب بصمت قطرات المطر وهي تنزلق على شعر ها الكستنائي وترسم خلفها دروباً ماسيّة تعكس أضواء المساء.

- لقد تغيّر كثيراً هذه الأيام، تصرفاته، كلامه مع أبي وأمي، وحتى معي.

أحلم لو تَمَّس يدي تلك الدروب الماسيّة، وأن أغفو في ذلك الليل الكستنائي. وأحلم لو أمسح كآبة عينيها وشحوب خديها بيدي. عيناها خُلقتا للفرح، فكيف جعلهما الحزن آية جميلة..؟، كيف جمعتْ نقيضين لا يجتمعان..؟.

- لم يعد سامي الذي أعرفه والذي تربيتُ معه.

وأنا لا أعرفك الآن، تغيّرتِ كثيراً في الأشهر القليلة الماضية لافتراقنا، زادتك الطبيعة جمالاً وإشراقاً، ورسمتك

بتألق وتأنق، وأهدتك حُسنا لم تَجُدْ به على مخلوقة قبلكِ. فلا يهمني حبيبتي إن غيّرت الطبيعة سامي أم أبقته على حاله.

- كَثُرَ غيابه خارج البيت.

أيضاً كل هذا لا يعنيني، لا أعرف سامي كلّ المعرفة لأشغل نفسي به، ما يهمني هو أنت وحدك دون باقي مخلوقات هذا الكون. لقائنا هذا انتظرته سنوات عديدة، ولدي الكثير لأقوله لك، لأكشفه لك، ولأرميه أمامك، عن حب خبأناه معا طويلاً وحانتْ ولادته. أعطني الفرصة للحديث، ولا تجعلي صَمْتَ الكلام يحوم فوقنا. انظري حولكِ، كل شيء يودّ سماع حديثنا معاً، حتى دمشق ذاتها انتظرت هذا اللقاء بلهفة، وكانت ترقبه كما ترقب الأم وليداً سيأتيها بعد طول انتظار، كل شيء فيها كان يسألني عنك، حدائقها، شوارعها، أنوارها، أسواقها، أناسها، وفصولها الأربعة، الكل كان ينادي قدومك، وأنا كنت أرد على النداء بجواب أخرق: (العام القادم، العام القادم سوف تأتي حبيبتي إلى هنا وستصبح فصلاً خامساً بين فصولك يا دمشق).

- أصبح عصبي المزاج، لا حديث له غير حديث زواجه. هدّده أبي وترجته أمي باكية، وأنا كدت أن أنهار على قراره الأخرق هذا.

مازال لا يعنيني كل هذا، أنت من يعنيني فقط، وحدك دون غيرك. غضّ الزمن عينه عنّا برهة فسرقنا هذا اللقاء منه خلسة، فدعينا نتحادث بالأهم حبيبتي. أتذكري كم لهفتْ قلوبنا للقاء كهذا منفردين، وحيد ين، لا يجمعنا غير حب وشوق..؟، لماذا ظروف من حولنا تسرق لحظاتنا الثمينة من بين يدينا..؟، ألم نعاني الانتظار واللهفة والصراع مع ذواتنا..؟، أم صارعتُ أنا وحدي..؟.

- الوضع في بيتنا سيئ جداً، فلم أجد غيرك أشكو له هذا.

إن صدقتِ أم لا فالأمر عندي أيضاً سواء، لم يعد يهمني إن شكوتِ لي أو لغيري بقدر ما يهمني لقائي هذا معك. كان في السنوات الأولى لحبنا أكبر أحلامي، بل أعظم مشروع أرسمه كل يوم عشرات المرات. وكنت أتساءل كثيراً : كيف سيكون..؟، وماذا سأقول لكِ..؟، بماذا ستجيبينني..؟، وكيف سنرسم حياة مشتركة..؟. فلا تقتليه يوم ولادته حبيبتي، دعيه يرى النور ويبوح بما يخفيه، عطريه بأنفاسك الشهية، وبلليه بدموع عينيك النرجسية فرحاً، أود سماع صوتك العذب الذي ألفته وعشقته، فلماذا يخرج الكلام من فيكِ غريباً غير مألوف لي..؟، ماذا فعلتْ بك الأشهر الماضية..؟، ماذا فعلتْ بك..؟.

- منذ أيام حادثته طويلاً. لم يزد شيئاً عن ما قاله لأبي وأمي. حاول إقناعي بالوقوف إلى جانبه، صرختُ في وجهه : أي زواج هذا الذي تسعى إليه..؟، فاجأه صوتي فهدأني، عاد لمحاولة إقناعي وأخذ بتلابيب حديث طويل حتى سألني: هل تؤمنين بالحب..؟.

وهل باتَ الحب في دائرة الشك أيضاً..؟، إذاً ضاع بين النعم واللا.

- أجبته طبعاً بدون شك فإن الحب يعلو فوق اعتبارات عدة، وينفرد باستثناءاته الخاصة، لكن ليس بهذه الطريقة، أرملة وفقيرة، فقيرة..؟.

تنطقين بغرابة واشمئزاز، لم تعرفي الفقر يوماً لذلك سيبقى مجهول النكهة لديك.

- لها ثلاثة أولاد..؟، تكبره بخمس سنوات..؟، وتعمل خيّاطة..؟. قُلْ لي: كيف لهذا الزواج أن يكون صحيحاً..؟.

وكيف تؤمنين بالحب إذاً..؟، ألم يسألك سامي هذا..؟.

- البارحة أصرّ سامي على موقفه، تفاقمت الأمور في البيت وكاد أبي أن يطرده لولا توسلاتي أنا وأمي وأخوتي الصغار. لم أنم ليلاً من شدة بكائي.

وأنا أيضاً لم أنم ليلة البارحة وأنا أفكّر بلقائنا هذا. أعددت في رأسي حديثاً طويلاً انتظرت ساعة بوحه لك سنوات طويلة، وما نتيجة انتظاري..؟، مشاكل عائلية تذيب حبي بعد أن رمته في النفايات. هل أنا مخطأ بسماعي لك أم أنت مخطأة بتناسي ما بيننا والخوض في أمور لا تعنينا..؟، عائلتك..؟، نعم لك الحق ولكن.....، من جديد لا أستطيع أن أمارس سلطتي كعاشق وكأن الحب قد وهبني سلطة لا معنى لها ولا وجود، ما أستطيع فعله هو أن أغيّر حديث سامي هذا، لكن سأدعك تشعرين بي وحدك دون تدخل مني.

- حاولتُ مرّة أخرى إقناعه للعدول عن هذا الزواج لكنه أصرّ بشكل أكبر وقال لي إنه لن يتراجع عن قرار أخذه مهما كانت الصعوبات.

بَكَتْ، فوقفت أمامها حائراً. دموعها عندي أغلى من أي شيء آخر، حاولتُ تهدئتها بقدر ما استطعت، لكنّي لم أستطع الاستطراد أكثر أمام أمر لا يعنيني به شيء سوى إنها مَنْ تحدثني به. هممتُ بتغير مجرى الحديث والهروب بها بعيداً عن ذلك عندما فاجأتني بقولها:

- أريدك أن تساعدني، أرجوك.

حدّقت في عينيها، شرفات بلورية غارقة بدمع صافي ترسل نظرات مسترخية ودافئة ردّتني بقوة إلى الأيام الغابرة، يوم أن بدأ حبنا بنظرات خجولة، فلم أجد في قلبي غير حنان

من نوع لا أفهمه. رَمَتْ شباكها فوق إرادتي فشعرت بالعجز أمامها عندما أردتُ الرفض وأن أقول لها لا. رددتُ في داخلي برفض شديد: (لا..لا) وأجبتها (بنعم، سأحاول، دعي الأمر لي وانسي كل الموضوع)، لم أسمع ما تمتمتْ به، ربما شكرتني أو قالتْ لي ما يجب أن أقوله لسامي، أو ربما ما يجب أن أفعله معه. وعدتها بإخلاص على المحاولة، فهدأ روعها وابتسمتْ الجوكندا أخيراً، فرحت لهدوئها وثقتها ولاقتراب الطمأنينة من قلبها. وشعرتُ باقترابي من البوح بحديث بيننا ما زلتُ أنتظره بوحه منذ سنوات عديدة، وثماره أصبحت وشيكة القرب من يدي. ساد الصمت بيننا وكلانا كان يرتبُ أفكاره ويستعيد مكانه وزمانه، قبّلتنا السماء بأمطارها آلاف القبل. حان وقتنا الخاص، حديثنا الخاص، طقوسنا الخاصة، فاشهدي يا أمطار، يا سماء، يا دمشق، ليظهر الحب إلى الحياة، يكفيه سجناً، ويكفيه احتراقاً صامتاً وموتاً بطيئاً، لم يرَ النور إلا بكلمات صغيرة ومتباعدة، مازحة وضعيفة وخائفة ومترقبة ما حولها، لا تحكمي عليه أن يصبح ذكرى حب مع تعاقب الأيام حبيبتي، ولا تجعليه كسيحاً عاجزاً في قلوبنا، أعطني الفرصة ولو لمرّة واحدة لأجعله ينهض ويصرخ في الوجود بقوة ويقول للأحلام الجميلة: حققي ذاتك فأنا موجود. لكنها أطلقتْ آخر سهامها نحوي وهي تقول لي:

- يجب علي أن أذهب الآن، لقد تأخرت، إلى اللقاء.

غادرتني بدون مقدمات أو تبريرات أو حتى أسف، حاولتُ إطالة اللقاء، وحاولتُ الفوز بغيره لكني استدركتُ الأمر وانسحبتُ بهدوء عندما شعرتُ بأنني ربما أفرض نفسي بما لاتريده هي. هززتُ رأسي أَنْ نعم، صافحتها ومَشَتْ بعيداً عني، وبقيتُ أنا واقفاً مكاني. نالتْ ما كانت توده من هذا اللقاء، وبقيتُ أنا وحيداً من جديد دون أن أبوح لها ولو بكلمة

واحدة جادة في مصيرنا معاً. شيّعتها بنظراتي، وراقبتها وهي تذوب في قطرات المطر وسواد الليل الكانوني ذاك. ذاب عبيرها مِن مَن حولي، وانطفأتْ أنوارها وغاب صوتها. عدتُ أمشي تحت أمطار دمشق الكانونية وحيداً كعادتي، أستذكر ودمشق غابر الأيام التي مضتْ. وعدتها من جديد بأن حبيبتي ستأتي العام القادم وتصبح فصلاً خامساً بين فصولها، فازدادت مطراً وبرداً، ودوى رعدها بصوته الهادر وكأنه يقول ساخراً: (لا تكذب عليّ كما تكذب على نفسك، لقد صَمَتَ الكلام بينكما ولم يعد لديك شيء له معنى).

كانت تلك الأمسية هي آخر مرّة التقينا فيها منفردين، وآخر مرة وقفتُ فيها تحت أمطار دمشق الكانونية.

أزهار تنمو في الصقيع

- أمي.

- نعم.

- متى يعود أبي..؟.

دوى صمت ثقيل، وذكرى بَرَقَتْ في أفق الذاكرة المرهقة، فاكتوى منها القلب المحترق. صمتٌ وحيرة ولا جواب حاضر الآن، انقضتْ البرهة إثر الأخرى حتى ولِدَتْ فكرة بسيطة، فكانتْ كطوق نجاة من حيرة الجواب، فقالها اللسان متلعثماً:

- في الربيع، حبيبتي.

- لماذا في الربيع..؟.

- لأن الربيع سيأتي بعد شتاء طويل.

- متى يعود أبي..؟.

- سارة حبيبتي، عندما تكبرين ستعرفين كل شيء.

- و أبي..؟.

-كفى، سيرحل الشتاء مع صقيعه يوماً، وسيأتي بعده الربيع وأزهاره، وسيعود والدك.

لم تجب سارة الصغيرة، بل حدقّت بعينيها البراقتين في وجه أمها، وشتى التساؤلات تراقصتْ في مخيلتها الصغيرة لولا أن شغلتها عنها دمعة قد تسللتْ من عين أمها، رفعتْ

يدها الصغيرة ومسحتها، فابتسمتْ الأم وضمتها إلى صدرها، قالت سارة:

- لا تحزني يا أمي، سيعود أبي في ربيع ما.

قالت الأم :

- آمل ذلك.

بَسَطَتْ سارة كفيها الصغيرين وقالت:

- يا ربي، من أجل أبي دع الشتاء يرحل بصقيعه والربيع يأتي بأزهاره، لكن يا أمي متى يأتي الربيع..؟، ومتى رحل عنا..؟.

مسحت الأم بكفها رأس الصغيرة، وقالت بصوت خافت كمن يروي حكاية ما قبل النوم لها:

- كل أيامنا كانت ربيعاً، لكنه في ليلة ظلماء غادر إلى أقبية الأرض، تأخّر، انتظرناه طويلاً، وحلَّ الصقيع مكانه فجمّد أرواحنا وأمات قلوبنا، انتظرناه أياماً، سنيناً ولم يعد، ولم نعد نسأل عنه، وأصبحنا نخشى حتى السؤال، ذهب ولن يعود.

هتفت سارة :

- وأبي..؟.

قالت الأم :

- سيعود صغيرتي، سيعود في يوم ما.

- متى..؟.

- قلتُ لك في الربيع..

****

تتالت الأيام ثقيلة.

وعندما تظهر الزهور الرقيقة في ركن من حديقة المنزل كانتْ سارة تجلس بقربها، تناجيها، تلاعبها بأصابعها الغضة وتسألها بعذوبة:

- الربيع أتى بك كما تقول أمي، فأين أبي..؟.

تهزها لتلقى جواباً فلا تسمع منها أي صوت، تبكي وتركض إلى أمها شاكية:

- الزهور نَمَتْ يا أمي في الحديقة والربيع أتى وأبي لم يعد بعد.

تقبلها الأم وتقول لها:

- عندما تكبرين ستحدثك الزهور عنه، وستقول لك متى سيعود، فقط عندما تكبرين.

****

وتتالت السنون.

عشقت سارة الزهور، وتغلغل رحيق حبها في ثنايا فؤادها الواثب وقلبها المترع بالحياة والشباب. جعلت من ركنِ الحديقة ذاك عالمها الزاخر بالخيالات والأحلام والأمل، وباتَ الربيع عندها هو الحبيب والمبتغى والمشتهى والمرتقب الذي كانت تناجيه كل يوم بلوعة وشوق. لم تعد تسأل أمها منذ زمن طويل، ولم تعد تناجي أزهارها وتهزها وتسألها عن الربيع،

ولم تجد أبلغ من الصمت لغة لتخاطب به حبيبها الغائب وزهورها النضرة.

وكل عام كانت تحتفل بأزهارها بطقوس تعنيها هي وحدها، تعتني بها، ترويها وتحميها من العابثين وتزيل من حولها ما يعيق نموها نحو ضياء الشمس، وكانت تجلس بقربها لساعات وساعات طوال، وتحادثها بصمتها آلاف الأحاديث. تخصبتْ أحلامها معها حتى كبرت وعمّت أرجاء الكون، حيث فرشته بالأزهار التي تحب، وأغرقت أقبيته المظلمة رحيقاً طيباً وحياة لا موت بعدها.

وكانت في كل حلم تحلمه تنادي الربيع الغائب والربيع الدائم الذي سيعيد لها والدها، ذاك الذي مازالت تحتفظ له في ذاكرتها بآخر مشهد رأته فيه قبل زمن طويل مضى:

في ليلة عاصفة، عنيفة رياحها وغزير مطرها ورعدها يصم الآذان وبرقها يضيء الأفق، بدا الموقف يقطر رعباً ساعة أن اختبأت في حضن أمها مذعورة تضم لعبتها إلى صدرها عندما اقتحم البيت بعض الرجال كالشياطين كانوا، وساقوا والدها أمامهم.

مازالت سارة تعتني بزهورها وركن حديقتها، ومازالت تنتظر الربيع بلهفة كلهفة لقاء حبيب غائب، ومازالت تنتظر عودة أبيها.

شتات .. وبقايا أرواح

دنوت من الباب بعجلٍ، قرعته وانتظرت المغيث بلهفة وترقب، البرد جمّد يديّ، وشعري الطويل عبثت به رياح كانون الهوجاء، فكان أشعثا ككومة من القش اليابس.

السماء مكفهرة وسوداء، غضبى وحبلى بالرعب منذ شهور قليلة مضت، جلتُ بعينين مذعورتين حولي، واشرأب عنقي نحو السماء، فرأيت المغيب وقد وشّح سوادها بلون برتقالي أثار مكامن الرعب في أعماقي. قرعتُ الباب مرة ثانية وثالثة، وآلمتْ يدي صلابته، فتأوهتْ أعماقي قهراً وبرداً وجوعاً. أعدتُ محاولتي، وكنت بينما أنتظر الجواب أنفخ أنفاسي بين كفيّ، فيسري فيهما دفء لذيذ يدوم للحظات ثم يتلاشى.

ضممت الطفلين إلي ولذت معهما بالجدار لَوْذَ حمامة تستشعر الدفء أنّى يكن. البرد تمكّن من الوجنات الصغيرة الرقيقة، فبدتْ لي شاحبة وكئيبة، العيون كَسلى ومرهقة ويتقد فيها الخوف والذهول، وأسمال بالية كَسَتْ الأجساد النحيلة وبالكاد صدّتْ بعضاً من صقيع لا يرحم.

لا استجابة من خلف الباب الأصم، فعاودت قرعه بقوة أكبر، وناديت بصوتي الضعيف المختنق، وضربته برجلي مرّات ومرّات، لعل من لا يسمع أن يسمع ندائي ويلبي استغاثتي ويسند ضعفي، فكانت محاولاتي خائبة، يأستُ، فافترشت الأرض وأسندت ظهري إلى الجدار خلفي، وضممت الطفلين إلى صدري أكثر.

- عطشان.

توسلني أحدهما، فألقمته زجاجة الماء حتى ارتوى، تحسّست الأيادي الصغيرة، فكانت باردة كلوح ثلج، وقاسية كالخشب، ضممتهما، وازددت انكماشاً عليهما لأعطيهما بعض دفئي، وما بقي عندي من حنان وأمان. نجونا من الموت هذا اليوم، ومنذ الصباح وأنا أجول بذعر من مكان إلى آخر بحثاً عن من يغيثني، وهذا الباب هو آخر ما أعرف في هذه المدينة، كل من طرقتُ بابه كان قد نزح مع النازحين، ولم أجد من يسعف ضعفي، ويلملم شتاتي، ويحمي طفليّ من البرد والتشرد والجوع والخوف، وقريبي خلف هذا الباب الموصد هو أملي الوحيد، وإلا سيكون الشارع مأواي لليال أخرى، وسيكون طعامي وطفليّ مما جمعته من خرائب هذه المدينة المنكوبة.

أغمضت عيني المرهقتين، حاولت استحضار السكينة، فأتتْ متهادية نحوي، تسلل الخدر إلى جسمي ونفسي، وغصتُ في أعماقي الموحشة أحتمي من كل هذا الموت والرعب حولي، هناك سطعَ نور جميل، عاينته بدهشة، وإذ هو نور المصباح الكبير في غرفة الجلوس في بيتي، سمعتُ صوت موسيقى تنداح هادئة، وتنثر حولها الكسل والاسترخاء، شاهدت نباتاتي العزيزة تحيط بي كما لو كانت حديقة غنّاء، وباب الشرفة الكبير كان مفتوحاً فبدتْ (حمص) من خلفه وكأنها لوحة زيت فائقة الجمال والنقاء والهدوء، ومفعمة بالحب والحياة كسابق عهدها. وكانت مائدتي الكبيرة تتوسط المكان وتزخر بمالذّ وطاب من طعامي، وحولها تجمهر الأحباب. الكل يتحدث ويثرثر ويضحك ويبتسم ويأكل، هذا أبي وتلك أمي وهؤلاء إخوتي، وذاك الحبيب جالس في كرسيه ينفث دخان سجائره بسكينة وهدوء، ويحاورني بعينيه حواره العذب، فتستطيب روحي وتهيم فرحاً وسعادة، أين هم الآن..؟، وأين (حمص العدية)..؟، وأين أنا..؟.

أزيز رصاص متقطع أيقظني من حلمي وأعادني إلى حيث أنا أمام هذا الباب الموصد، وتراءى لي أشباح بشر تركض وتختبأ وتتوارى في عتمة المساء، وفي السماء كانت الغيوم سوداء وكأنها قطعان من أبقار تجري على عجل هرباً من خوف يلاحقها.

وسرعان ما هبط الليل الشتائي، وغشا صمت ثقيل المكان حولي. بعض المارة كانوا يركضون مسابقين الموت المتربص بالجميع هنا، ولا يلتفت أحد منهم لندائي الضعيف، والكثير كان متواري خلف بابه يأكله الصمت كما الخوف. سمعت صوت أقدام تقترب مني، نبهتْ بقايا روحي المهترئة وهيأتني للمواجهة، اقترب صاحبها أكثر، وبدا وكأنه يتلمّس طريقه بحذر شديد، ضممتُ الطفلين ولذت بالصمت، والدموع كانت تسفح ذاتها على خدي في عتمة الليل تلك، كدت أن أصرخ واستغيث، لكن خوفي قد جمّد الحياة في حنجرتي وأخرس لساني، سمعت صوت (نحنحة) خفيفة، تلتها سعلة مكتومة، فابتسمت، وانفرجتْ أساريري بفرح، أعرف هذا الصوت حقّ المعرفة ولا تخطأه أذناي المرهفتين أبداً. اقترب حتى رآني، فجفل مني خوفاً وكاد أن يهرب بعيداً لولا إني قد ناديته باسمه بصوت مخنوق من العبرات، فعاد نحوي مرحباً بصوت هامس كالفحيح، ويديه كانت تفتح الباب باضطراب وتوتر شديد.

لم يسألني وأنا لم أشرح وأعلل وقد بدا كل شيء واضحاً له، دخلت البيت وغمرتني سعادة استباحت ما بقي من دمع في المآقي، ووقف هو أمامي مطرقاً محزوناً يقاوم دمعه ويتركني لبكائي ونحيبي ليغسل قلبي ويجلو روحي، وكان الصمت يسترخي ثقيلاً فوقنا، قال لي بعد برهة:

- لا عليكِ، أنتِ وأطفالك في أمان الآن، ادخلي هذه الغرفة حتى أوقد ناراً وأعد طعاماً.

تلمّس طريقه نحو المطبخ، وأنا دخلتُ الغرفة وانكفأت في إحدى زواياها مع الطفلين، سمعت صوت جلبة، وشعرت بحرج أذابني في ثيابي، لحظات طويلة مرَّت حتى عاد وقال لي بصوت منخفض:

- سأغيب لجلب الطعام، فلا طعام عندي منذ أيام مضت.

رفضت ذهابه وسط هذا الموت المتربص في كل مكان، فابتسم وقال:

- لا عليكِ فقد اعتدنا هذا الحال، خذي راحتك، فالبيت بيتكِ، وأنا لن أتأخر.

وغادر بيته متسللاً ومتلفتاً بحذر مما حوله، خالجني شعور بالخوف والوحشة، وبدتْ لي الجدران التي آوتني منذ قليل وقد أصبحت كألواح من الجليد تذوب وتكشف ضعفي وقلة حيلتي، ومن جديد ضممتُ الطفلين ألَيَّ، ورحتُ أنفخ في كفيَّ أنفاسي الحارة لألتمس بعضاً من دفئها.

انتصف الليل وغفا الطفلان، وأنا كنتُ أتخبط بين النوم واليقظة، ووقد تسلل ضوء الفجر من النوافذ وشقوق الجدران وصاحب البيت لم يكن قد عاد بعد.